# الباب الخامس

## الحياة الروحية فى مدرسة الشام

### فى القرنين الأول والثانى الهجريين

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الأول

## سمات مدرسة الشام الزهدية

لقد ذهب معظم الباحثين الأوربيين من مستشرقين وغيرهم إلى أن الحياة الروحية فى مختلف أقاليم الإسلام قد اتصلت بعنصر خارجى . كأن الإسلام لم يأت أبداً ، وكأن أبناء الإسلام لم يقوموا بدورما على مسرح الروح . كان كل ما يتوقون إليه أن يتلمسوا المصدر الخارجى فيتلقفوه ، ويعيشوا فى أضوائه ، سواء أكانت هذه الأضواء واضحة أم باهتة ، زاهية أومعتمة . فدخلوا سراديب الهنود الروحية فى البصرة ، فأخذوا يعيشون فى ظلال اليوجا والجينا ، ويقلدون الجيمنوسوفيست ويتعبدون على براهما وبوذا ... ويطلقون البخور الهندية ، ويتعلقون بالمسبحة السندية ... عجباً ! وكأن لم يكن لهم قرآن يقرءونه ، ويتعمقونه ، وأحاديث فى أعماق الزهد ، ومناداة الروح ومناجاة الآلهة يلجأون إليها . وكأن لم يكن بين صحابة نبيهم من ضربوا أعظم المثل فى الزهد وكراهة الدنيا ... وفى الكوفة تلمس رواد الروح التراث الآرامى ، ويقول المستشرقون إن هذا التراث كان قد تكون فى قرون طوال قبل الإسلام ، وقد تكون فى ثنايا مزيج غريب من الفلسفة الغنوصية اليونانية أفلاطونية وأرسطاليسية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية محدثة مرتبطة بالطب وعلوم الصنعة من ناحية وبالأساطير الفارسية والكلدانية . والتهم هذا الغنوص فى أحياء الكوفة كل حياة للروح لدى المسلمين . ورأى البصريون والكوفيون رهبان النصارى يلبسون الصوف ، فلبسوا الصوف أيضاً . هذا ما رآه المستشرقون والباحثون الأوربيون . وما أحمقهم جميعاً . ثم ننتقل الآن إلى مدرسة الشام ... وكان لا بد لهم أن يلتمسوا المصدر أيضاً – كانت الشام خالصة للمسيحيين قبل الإسلام ، وكان فيها كل الفرق المسيحية ، من فرق تتابع فلسفة المسيحية ، وفرق هرطوقية . دخلت فيها أيضاً كل الثقافات السابقة–وأكلها الغنوص أكلا ، والتحم بها الفكر الشرق ، كما انتشرت القبالا اليهودية تعتصر المسيحية اعتصاراً . وانتشرت الأديرة ، وكانت آراء القديسين بازيل وإفرايم وغيرهما ... تنتشر فى الأديرة مختلطة بأقوال البرديصانية والمرقونية إلخ . . . وتراث الآباء ، آباء الكنيسة ، فيه من العناصر المختلفة المتباينة ، وفيه من الأسرار الغامضة ما يجعل الباحث يقف حائراً ما هى الحقيقة المؤكدة فى كل هذا . ولكن هؤلاء المستشرقين والباحثين فى الدراسات الإسلامية من الأوربيين يرون أنه حين أتى العرب من أعماق

صحرائهم ، لم يفعلوا شيئاً ، سوى أن قفزوا أيضاً على الأديرة والرهبان ، وفتحوا الكنائس ، يقرءون ما فيها من حكمة الروح ، ويعتبرونها قانونهم الأزلى ...

وما أحمق هؤلاء الباحثين أيضاً .

لقد تناسوا الخصائص الفكرية والروحية لكل حضارة من الحضارات ، وأن لكل حضارة ملامحها الفكرية والروحية التى تخرج من أعماقها ، وأن كل حضارة تمضى فى سيرها بقوام معين ، منكفئة على ذاتها ، تستلهم الداخل وتستنبطه ، حقًّا . قد يعلق بها شوائب خارجية ، ولكنها لا تنفذ إلى «الكنه» إلى «الجوهر» التى اتخذته ، أو التى «اتخذ» لها ، ركيزة وأساساً. ولو لم يفعل الباحث المحايد هذا ، لما كانت هناك سوى نسخة واحدة من الحضارة ، وأقصد بالحضارة هنا ، المعنى الواسع لها ، الروح والفكر والمادة . ولكانت المسيحية وحضارتها مزيجاً من اليونانية والهندية والفارسية ، ولكانت اليونانية وحضارتها من قبل مزيجاً من الهندية والبابلية والصينية ... ولكانت ... ولكانت . ولم يحدث هذا قط ، بل جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً ، يختصان بها ، ويختصان بها وحدها .

وقد رأينا فى كل من البصرة والكوفة ، كيف صدرت الحياة الروحية عن أساس إسلامى ، يوغل فى الإسلامية ، ويحاول أن يستبطن ويستلهم ويستنبط روح الإسلام،وروح الإسلام هو فى قرآنه وحديثه وسنة صحابته،وكذلك حدث فى الشام ، ارتبطت الحياة الروحية بكل هذا . وأخذت تعمقه ولا ضير بعد ذلك إن تشابهت بعض هذه الحياة الروحية مع مثيلاتها فى المسيحية ، أو أخذت بعض هذه العناصر . لقد قلت مراراً من قبل إن الدينين أتيا من معدن واحد ، أعلن الاثنان أنهما وحى إلهى ، وأنهما نزلا من السماء ، فلا بد وأن تتشابه أصولها ، وبخاصة الأخلاقية والروحية ، والقرآن يعلن فى كثير من المواضع أنه أتى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، والدراسة العلمية المقارنة للدينين تثبت أنهما لا يختلفان فى النظريات الأخلاقية أدنى اختلاف . وجوهر الزهد والتصوف هو الأخلاق . ولكن لكل دين مجتمعه ونسقه . أما إن الشخصيات التى أثرت فى الحياة الروحية فى الشام ذات ماض مسيحى – وأن أهم هذه الشخصيات هى شخصية تميم الدارى . فهو قول داحض متهافت . إن مسيحية تميم الدارى مشكوك فى صحتها . لقد يتلقف أصحاب الأثر والمؤثر المسيحيين أخباراً غامضة تذكر أن تميما كان مسيحيًّا قبل إسلامه ، وبنوا على هذه الأخبار الغامضة ، نظريات ومذاهب . ثم إنه لا يقدح فى إسلام تميم الدارى كونه مسيحيًّا قبل إسلامه ولو افترضنا أن مسيحية تميم الدارى قد علق بعض عناصرها بإسلامه ، فلا نرى فى الشام ولا فى غيرها آثاراً فى غيره من الزهاد .

**١ – الإسرائيليات :**

ويؤدى هذا بنا إلى بحث مسألة الإسرائيليات . وحقا : لقد انتشرت فى الإسلام – عن طرق متعددة . قيل : إن هذه الإسرائيليات أتت من الشام ، كما قيل إنها أتت من اليمن . وكان مصدرها كعب الأحبار فى الشام ومصدرها فى اليمن عبد الله بن سبأ ولكننا – كما سنرى بعد – أن كعب الأحبار قد عاش فى المدينة ، وتحت أعين عمر بن الخطاب . وقيل : إنه كان يستمع لأخبار الأمم الماضية منه ، كما كان يستمع إلى تفسير للآيات القرآنية ولما فيها من أحداث فى ضوء هذه الإسرائيليات .

ولكن عمر كان بالمرصاد لما يخالف القرآن – روحه ونصه . وقد ترك لنا عن كعب الأحبار الكثير من الإسرائيليات ، ولا نرى فيها أبدا أشياء تمس عقيدة المسلمين ، بل تؤيد نصوصهم . أنا لا أنكر أنه فى عصور متأخرة ، وبخاصة القرن الثالث الهجرى ، انتشرت إسرائيليات تحمل فى أعماقها فلسفة غنوصية ، تحمل تفسيرات فيلون ، وتقذف بالآراء القبالية فى العالم الإسلامى وتختلط هذه الإسرائيليات الغنوصية بآراء الصوفية الفلاسفة ، وتدخل فى نطاق نظرياتهم . . . وحقًا إنه انتشرت إسرائيليات تدعو إلى التجسيم فى العالم الإسلامى ، ممتزجة بعناصر ثنوية وتفسر فى عدد من المجسمة . . . ولكن لم يحدث هذا فى القرن الأول ولا فى معظم عقود القرن الثانى ، كان المسلمون فى هذين القرنين يتدبرون القرآن ويحاولون تفسيره ، وانقسموا فى هذا إلى طوائف : طائفة تتدبره للفقه وللأحكام ، وطائفة تتدبره لمعرفة أسراره فى البلاغة والبيان . . . وطائفة تتفحصه للعبادة وللتعبد – وطائفة أخرى شغلت بما فيه من أخبار الأمم الماضية ، وكان الكثير من المسلمين قد أولعوا بسماع أخبار الأمم الماضية وبخاصة إذا أيدت النصوص القرآنية . ومن المهم أن نقرر أيضا أن كثيراً من هذه الإسرائيليات لم تكن صادرة عن نصوص إسرائيلية أو مسيحية معتمدة لدى يهود أو مسيحيى هذا العصر ، بل هى أقوال وآثار أنكرتها الكنائس الرسمية المسيحية والمجامع الرسمية اليهودية .

والآن ننتقل إلى الشام . . . وقد دخلها المسلمون واستقروا فيها وأتى إليها مجموعة من زهاد الصحابة – كمعاذ بن جبل ، وقد توفى فيها ؛ ثم أبو ذر الغفارى – وقد اختلف مع حاكمها معاوية بن أبى سفيان وسيره إلى مكة . . . فهل كانت طبيعة الشاميين تختلف عن الكوفيين والبصريين إذا كنا بصدد حياة الروح لدى المسلمين .

إننا نسمع أن معاوية بن أبى سفيان قد حكمها ثلاثة وأربعين عاما . وقد أسكرها بالترف فنام الشاميون ملء الجفون . وليس هذا بحق . حقًا إن معاوية اشترى رؤساء القبائل ، وغمرهم بالأموال ، وأفسد ذمم البعض وضمائرهم فسيروا المقاتلة له ، وعبأو الجيوش يحاربون فى سبيله ، أو فى سبيل

أطماعهم ، ولكن لا يمنع أبداً من انقداح حياة الروح فى مجموعة إنسانية ، فساد حكامها ، وفسق أمرائها إن العكس هو الذى يحدث تماماً . . . إن حياة الروح هنا تنشأ وتزهو .

٢ – عقيدة الجبر :

ولقد كان من أهم سمات الحياة الروحية فى الإسلام : عقيدة الجبر . وعقيدة الجبر ستكون عقيدة الصوفية جميعاً على اختلاف مشاربهم ومنازعهم . ولقد قيل إن عقيدة الجبر نشأت – أول ما نشأت – فى أرباض الشام ، الاستسلام المطلق لما توجبه الإرادة الإلهية ، ولقد قيل : إن الأمويين قد عاونوا على نشر هذه الحقيقة ، إذ فيها تثبيت لأقدامهم ، وإيحاء للمسلمين بأن حكمهم للمسلمين – وهم أبناء الطلقاء وأعداء الرسول القدامى . إنما هو قدر من الله ، كتبه الله عليهم فى علمه القديم السابق ، إن صح هذا – ولعل ما يؤيده محاربة الأمويين للقدريين – فإن فيه دلالة على أن الأمويين – قد عاونوا – من طريق غير مباشر – على نشر روح الزهد فى الشام ، على خلاف ما يقوله بعض المؤرخين من أنهم دعموا حياة الترف والبذخ ، ولكنى لا أرى أبدا أن عقيدة الجبر قد نشأت فى الشام عن هذا الطريق . لقد كانت عقيدة الجبر منتشرة فى كل مدارس الروح فى العالم الإسلامى ، إنها صفة لكل عابد ومتزهد ومتصوف خلال الأجيال وفى كل الأمم على اختلاف أنواعها ، ثم إن عقيدة الجبر كانت راسخة فى البصرة كما كانت راسخة فى الكوفة ، والمدينة ، ولدى كل طوائف العباد . . . لقد انحنى العباد جميعاً للمشيئة الإلهية وللأمر الإلهى فى كل مكان وزمان ، قد يقال : إنها كانت أظهر عند المسلمين لدى أهل الشام فليكن . ولكنى لا أعرض هنا لحياة المسلمين العقلية والفكرية ، إنما أعرض لتاريخ الحياة الروحية الإسلامية ، وهى فى كل أقاليم العالم الإسلامى .

٣ – الجوع :

ثم نلاحظ أيضا أن عباد الشام قد عرفوا باسم الجوعية . يقول الكلاباذى « وأهل الشام سموهم جوعية ، لأنهم ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة – كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه »[1]، وقد رأى الدكتور الشيبى أن الجوع فى الشام كان يقابل الصوف الذى كان شعار الزهد فى الكوفة ، والحب والبكاء اللذين وجدناهما من أبرز أوصاف الزهد فى البصرة ، ويعلل هذا بأنه « قد يبدو الجوع غريباً من حيث إنه نقطة تجمع المثل الزهدية فى الشام ، ولكن هذه الغرابة تتبدد بمعرفتنا أن الشام كانت ريفاً لا يجوع فيه إنسان ، فكان الشبع ،

(١) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦ .

يورث اللامبالاة فيها ، وينأى بالنفس عن إدراك ما يحيط بها من مظالم ، فيقوم الشبع سدا يمنع الناس من التفكير فى غيره[١]» وفى الحقيقة إن مرد الجوع فى الشام لم يكن لهذا ، إنما كان جوع العباد الذين لا يأبهون بالحاكم ، ولا بحكمه ولا بسطوته ، لم يفكروا فى مظالم الحكام بقدر ما فكروا فى مظالم النفس المرتبطة بالجسد . فأجاعوا الجسد . لقد كان هذا سياق تفكيرهم .

ولقد كان أول من دعا إلى الجوع فى الشام رجل – وقف – مع عثمان شيخ بنى أمية فى المدينة فى نزاعه مع أبى ذر الغفارى ، وهذا الرجل هو كعب الأحبار . ولقد وصل كعب الجوع بمحبة الله . يقول : «إنى لا أجد نعت قوم يكونون فى هذه الأمة بمنزلة الرهبانية ، قلوبهم على نور ، تنطق ألسنتهم بنور الحكمة ، تعجبت الملائكة من اجتهادهم واتصالهم بمحبة الله : قيل : يا أبا إسحق من هم : قال : قوم جوعوا أنفسهم لله وظمؤوها ، ينادى يوم القيامة : ألا ليقم أهل الجوع والظمأ ، فيلتقطون من بين الصفوف ، فيؤتى بهم إلى مائدة منصوبة ، لم تر العيون ، ولم تسمع الآذان بمثلها ، فيجلسون عليها والناس فى الحساب[٢]» ، ثم يورد إسرائيلية أخرى يقدس فيها الجوع والجوعية فى أمة محمد . يقول كعب «قال موسى عليه السلام : إنى الأجد فى الألواح ، صفة قوم على قلوبهم من النور ، مثل الجبال الرواسى ، تكاد الجبال والرمال أن تخر لهم سجدا من النور . فسأل ربه وقال : اجعلهم من أمتى . قال يا موسى إنى اخترت أمة محمد وجعلتهم أئمة الهدى . وهؤلاء طوائف من أمته . قال : يا رب : فيما بلغ هؤلاء؟ حتى آمر بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وأبلغ نعمتهم . قال : يا موسى إن الأنبياء كادوا أن يعجزوا عما أعطيت أمة محمد ، يا موسى : بلغوا أنهم تركوا الطعام الذى أحللت لهم رغبة فيما عندى ، وكان عيشهم فى الدنيا العلق من الخبز ، والخلق من الثياب ، أيسوا من الدنيا وأيست الدنيا منهم ، أقربهم منى وأحبهم إلى أشدهم جوعا ، وأشدهم عطشا ، يا موسى لم يتقرب أحد إلىّ بشىء أفضل من كبد عطشت وجاعت . يا موسى ليس للجوع عندى ثواب إلا الجنة ، يا موسى اصبر وتوكل على ، فهو أشرف العمل عندى ، يا موسى من جاع وعطش فى الدنيا من خشيتى ، شبع وروى فى الآخرة ، يا موسى . . . قل لبنى إسرائيل : يتقربون إلى بذوب الشحوم واللحوم فى الدنيا بقلة الطعام ، فإنها أحب الأشياء إلىّ ، يا موسى طوبى لمن صحبهم وصحبوه ، أقربهم منى ، وأبغض الناس إلىّ من أبغض جائعاً عرياناً من مخافتى»[٣]. ولقد أوردت النص كاملا ، لكى يتبين لنا أن الصرخة الأولى التى مجدت «الجوع» فى الشام إنما صدرت من رجل وقف فى وجه أبى ذر – وهو يعرض لمظالم

---

(١) الشيبى ج ١ ص ٣٣٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٣٨٩ .

حكام بنى أمية ، ويطلب توزيع المال على الفقراء . فلم يكن الجوع إذن موجهاً نحو الحكام ، ولا مطلباً للتفكير فى مظالمهم . وأن المثال الذى أورده الدكتور الشيبى عن أبى سليمان الدارانى شيخ مدرسة الزهد فى الشام ، ليثبت أن الجوع عنده مرتبط بمحاربة الجسد ومحاربة اللذة الجنسية بالذات . فهو باب إذن للتفرغ للعبادة وللتخلص من أوزار الجسد والوارد فى المحبة الإلهية ، وسيتضح هذا حين نبحث فى آثار أبى سليمان الدارانى نفسه وكما شاع فى البصرة وفى الكوفة . . . الخوف والبكاء كان الأمر كذلك فى الشام ، وأخبار عباد البصرة مليئة بقصص بكائهم وخوفهم ، ووجوههم الضامرة ، ومجارى الدموع — وقد ظهرت على هذه الوجوه .

**٤ — المحبة :**

وأنتقل إلى العنصر الثالث من عناصر هذه المدرسة ، وهو عنصر المحبة ، وسيتضح تماماً فى أقوال أبى سليمان الدارانى نفسه ، وأقول تلميذيه أحمد بن أبى الحوارى وزوجته رابعة بنت إسماعيل . ومدرسة الموصل — وكانت الموصل إبان ذلك الوقت تعتبر من توابع الشام ، لقد ظهرت نظرية المحبة فى مدرسة الشام فى صورة عذبة نقية ، وقد أتتها بلا شك من أرباض البصرة ، أو أثرت فيها ، بل إن أبا سليمان الدارانى كان عراقى الأصل ، من واسط .

**٥ — القلق :**

وأخيراً يتبين لنا عنصر « القلق » . كان القلق يسود عباد الشام بصورة أشد وأقوى مما كان فى الكوفة وفى البصرة . فلعل العباد هنا فى الشام أيقنوا أن حكامهم أخذوا الأمر من أصحابه ، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة الفسقة — كانوا يدافعون عن بيضة الإسلام ، ويغزون بلاد الكفرة ويقتحمون البلاد البعيدة باسم الإسلام . كانوا يفعلون هذا فى حقيقة الأمر . للمغانم والأسلاب ، ولكن الإسلام كان يسير ظافراً حيثما ساروا . . . وساد العباد القلق ، كان عليهم اتباعا لسنة الإسلام — أن يرابطوا وأن يحاربوا ، واستشهد العدد الكبير منهم فى المغازى . ولمن يفعلون هذا . للدين أم للدنيا . . . وما أصدق ما قال عبد الله بن عبد الأعلى — كما لاحظ الدكتور الشيبى بحق — دخلتها جاهلاً ، وأقمت فيها حائراً وأخرجت منها كارها[1]، وكان عبد الله بن عبد الأعلى أول من تكلم عن الحيرة . وستكون الحيرة مقاماً من أكبر مقامات الصوفية فيما بعد . وسيضع الصوفية حديثاً يدعم هذا المقام « اللهم زدنى فيك تحيراً » .

وأثر القلق — وهذا ما لا نراه أبدا فى البصرة ولا فى الكوفة ، ولا فى بغداد فيما بعد — فى الخلفاء

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٣٨ .

أنفسهم . فأعلن الخليفة السفيانى الثالث ، معاوية بن يزيد ، وتحت تأثير أستاذه عمر المقصوص الزهد الحقيقى ، الزهد فى إمارة المؤمنين وقد قتل أبوه من قبل ابن فاطمة العظيم لأجلها . وأعلن « أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء أنا بوزرها — ومنعها أهلها كلا — إنى لبرىء منها » وقد ذكر عمر المقصوص أن معاوية ابن يزيد كان مجبولا ومطبوعاً على حب على بن أبى طالب . وقد أصابه القلق النفسى العنيف . فترك الدنيا ، وقد قيل إن الأمويين قد سموه ، كما قتلوا عمر المقصوص . واعتبروا موقف معاوية إنما كان بسبب هذه البدعة الزهدية التى غرسها فيه أستاذه . ويقال أيضاً إن الابن الآخر ليزيد وهو خالد بن يزيد ، وكان أول من تعاطى علوم الصنعة ، كان زاهداً ويرجح الشيبى أن أبا هاشم الكوفى هو أول من تسمى باسم الصوفى الكوفة[1] بل يرى بعض الباحثين أن أبا هاشم هو أول من تسمى باسم الصوفى فى الإسلام هو خالد بن يزيد . ومن المرجح أن يكون خالد بن يزيد قد تزهد ، وبخاصة أنه سلب الخلافة ، ثم إن الاشتغال بالكيمياء كان من صفات الصوفية ، رأينا هذا فى جابر بن حيان ، كما سنراه فى ذى النون المصرى ، والحلاج والعدد العديد من الصوفية . ولكنى أشك تمام الشك فى أن خالد بن يزيد هو أبو هاشم الصوفى — كما سأبين فيما بعد ، ثم ظهر عمر بن عبد العزيز ، وقد اعتبره الكثيرون خامس الخلفاء الراشدين لعدالته ولزهده . وكان القلق أيضا يسود حياة هذا الخليفة الأموى ، حتى انتهى به إلى الزهد المطلق . وقد أجمع الأقدمون على أنه كان صورة « من عمر بن الخطاب » ، وقد كان ينتسب إليه من ناحية أمه ، ويرى الدكتور الشيبى من المحدثين أنه كان صورة من على بن أبى طالب[2] وكلا الأمرين كما سنرى بعد صحيح . ثم نجد صورة حية زاهدة فى خليفة أموى آخر هو « يزيد بن الوليد » ويقول المسعودى « والمعتزلة تفضل فى الديانة يزيد بن الوليد على عمر ابن عبد العزيز »[3] .

وكما ارتبطت المدارس المختلفة بصحابى كبير من العباد ، فارتبطت مدرسة البصرة بأبى موسى الأشعرى والكوفة بعلى بن أبى طالب من ناحية وعبد الله بن مسعود من ناحية ، ارتبطت مدرسة الشام بصحابى من كبار العباد وهو أبو الدرداء . وكان أبو الدرداء أيضا من كبار القراء : العباد الأوائل فى الإسلام ، سدنة الروح فى مطلعه .

---

(١) نفس المصدر : ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٢ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج١ ص ٢٣٩ — ٣٤٠ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٢ .

## ٦- أثر أبي الدرداء في مدرسة الشام

كان أبو الدرداء عويمر بن زيد من خاصة أصحاب رسول الله ومن الأنصار ومن كبار قراء المدينة . كان تاجراً قبل إسلامه ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أسلم وأقبل على مزاولة تجارته ، ولكن صوتاً داخليًّا انبعث فيه ، جعله يهجر تجارته ، ويتفرغ للعبادة . . . وهو يحدثنا عن هذا التحول ، فيقول : كنت تاجرا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد ، زاولت العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فأخذت في العبادة وتركت التجارة . . . ولكنه لا يحض الناس جميعاً على أن يفعلوا ما فعل . . . « ما أقول إن الله عز وجل لم يحل البيع ، ولم يحرم الربا ، ولكن أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله[1] » وهذه هي صورة العابد الإسلامي في مطلع النبوة . . . وكان على أبي الدرداء أن ينضم لطائفة القراء الرواد الأولين للروح في الإسلام . منقطعاً للقراءة والعبادة . ويقابله أحد المنافقين في المدينة فيقول له « يا معشر القراء . ما لكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم وأعظم لقما إذا أكلتم » فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً . وعلم عمر بن الخطاب بالأمر ، فسأل أبا الدرداء ، ولكن القارئ العابد يقول « اللهم غفرا ، وكل ما سمعنا منهم نأخذهم به » وكأنه قد أراد أن يعفو عن الرجل . ولكن عمر يذهب إلى هذا المنافق ، ويأخذ بخناقه ويقوده إلى الرسول . ويقول الرجل معتذراً « إنما كنا نخوض ونلعب » ونزل الوحي « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب[2] » وإذاً فقد نزل القرآن في هذا العابد القارئ أبي الدرداء وأقبل المسلمون إلى الشام غزاة فاتحين . وكان من جملة الجيش أبو الدرداء . أرسله عمر بن الخطاب ليكون قاضيا على دمشق . وغزا المسلمون قبرص . وفتحوها . وأتى بأهلها أسارى . ورآهم أبو الدرداء باكين . . . وكان المسلمون في فرح عارم لنصرهم ولكن أبا الدرداء ينزوى في ركن قصى . باكيا لذل المغلوب ويمر به جبير بن نفير . فيراه وهو يبكي فيسأله « ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله » فيرد أبو الدرداء « ويحك يا جبير . ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره . بينا هي أمة قاهرة ظافرة لهم الملك . تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى[3] » وتلك لمحة من لمحات العباد .

واستقر المسلمون في الشام ، وازدهرت حياتهم ، وأتتهم الغنائم من كل صوب . ورأى أبو الدرداء أهل دمشق يتبارون في الثراء ويتقلبون في النعم ، ويهجرونه هو « صاحب الرسول » فنادى فيهم « يا أهل

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) نفس المصدر حـ ١ ص ١٢٣ .

دمشق . أنتم الإخوان فى الدين والجيران فى الدار ، والأنصار على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتى ، وإنما مؤونتى على غيركم ، مالى أرى علماءكم يذهبون وأرى جهالكم لا يتعلمون ، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به وتركتم ما أمرتم به ألا إن قوما قد بنوا شديداً ، وحملوا كثيرا ، وأملوا بعيدا ، فأصبح بنيانهم قبوراً وأملهم غروراً وجمعهم بوراً . . . ومضى يلقى إليهم بلمحاته ، ويذكرهم بالفناء «عدوا أنفسكم من الموتى» . «يا ابن آدم ، إنما أنت أيام ، فكلما ذهب يوم ، ذهب بعضك ، ياابن آدم . إنك لم تزل فى هدم عمرك من يوم ولدتك أمك[1]» «لو ثلاث خلال لأحببت أن لا أبقى فى الدنيا . . وضوع وجهى للسجود لخالقى فى الليل والنهار يكون تقدمة لحياتى ، وظمأ الهواجر ، ومقاعدة يتقون الكلام ، كما تنتقى الفاكهة»[2] ، وتمنى ، كما تمنى العباد فى البصرة أن يكون شجرة تعضد ثم تؤكل .

رأى أبو الدرداء الناس فى دمشق — كما قلت — قد أقبلوا على الدنيا ، وتركوا العلم والعمل إلا قليلاً ، فكان يقول ، وقد نسب هذا القول إلى على أيضاً «الناس ثلاثة عالم ومتعلم والثالث همج لاخير فيه» . . . وكان يقول «إن أخوف ما أخاف ، إذا وقفت على الحساب ، أن يقال لى : قد علمت فما عملت» .

وكتب إلى صديقه القديم سلمان الفارسى «يا أخى ليكن المسجد بيتك» . ودعا إلى محبة الله ، فكتب إلى مسلمة بن مخلد الأنصارى يقول «أما بعد . فإن العبد إذا عمل بطاعة الله . أحبه الله . حببه إلى خلقه»[3].

وكان يردد حديث الرسول «اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك . اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وأهلى والماء البارد» .

ومر أبو الدرداء برجل مذنب والناس تسبه . فغضب وقال لهم «أرأيتم لو وجدتموه فى قليب . ألم تكونوا مستخرجيه . قالوا : نعم . قال : فلا تسبوا أخاكم . واحمدوا الله الذى عافاكم . فسألوه : ألا تبغضه قال إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخى[4]» وهذا مقام صوفى حقيقى .

وأشار فى أحاديثه إلى مقام الصبر والرضا والتوكل فكان يقول «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر والإخلاص فى التوكل والاستلام للرب عز وجل[5] .

---

(١) ابن الجوزى صفة ج١ ص ٢٦٢ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢١٣ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ١ ص ٢٥٨ ، أبو نعيم : حلية ج١ ص ٢٢٧ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج١ ص ٢٢٥ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج١ ص ٢١٦ .

بل إن أبا طالب المكى ينسب إلى أبى الدرداء أنه وصف الأبدال . كما ذكر الزهد فى الدنيا «وأنه معاينة الآخرة بالقلب – فيعمل لها الإنسان[١] » .

وأخيراً . . . دعا إلى الجوع . وقد رآهم يشبعون حتى البطر «وإنى أخاف عليكم شهوة خفية فى نعمة ملهية وذلك حين تشبعون من الطعام . وتجوعون من العلم» ولعله أول من لاحظ أن عباد الشام ينبغى أن يجوعوا . مقابلا لشهوة الطعام التى وسمت الشاميين إبان ذلك العهد . ولعله أيضا هو الذى دعا كعب الأحبار فيما بعد لأن يضع مصطلح الجوعية . ثم تصبح الجوعية وسما على عباد الشام .

وبعد : فقد كان أبو الدرداء شيخ قراء الشام وكانت القراءة حينئذ تعنى العبادة ، وقد قدم الرجل لنا لمحات جميلة – كما رأينا – وترك بعده امرأته أم الدرداء وقد تقدم إليها معاوية لخطبتها . فأبت كما أبت وأبو الدرداء حى أن تزوج ابنتها من قبل لابنه يزيد ، وبالرغم من هذا . فإن يزيد بن معاوية ذكره يوما فقال «كان والله أبو الدرداء من العلماء الحكماء . والذين يشفون من الداء»[٢] وقادت أم الدرداء حلقة العبادة بعده .

ومن العجب أن تلامذته من القراء لم يشتركوا فى حرب صفين . وعادوا عنها وبخاصة تلميذه الكبير : أبو مسلم الخولانى وقد قلدوا فى هذا قراء البصرة والكوفة . كما روى أحاديثه مجموعة كبيرة من الزهاد كسفيان الثورى والفضيل بن عياض . وقد مات أبو الدرداء عام (٣١ هـ) فى خلافة عثمان وقدر له ألا يرى الفتنة – بين على ومعاوية .

## ٧–كعب الأحبار :

ولم تلبث الفكرة الجوعية – أن ظهرت على يد شخصية من أغرب الشخصيات التى ظهرت فى الإسلام – وهى شخصية كعب الأحبار . وقد وصفه ابن الجوزى بأنه «كعب الأحبار بن ماتع – ويكنى أبو إسحق – من حمير من آل ذى رعين» ويبدو أنه أتى من اليمن . وكان يهوديًّا . فأسلم – وقدم إلى المدينة . وحدث عن عمر بن الخطاب وصهيب وعائشة وكان أثيراً لدى عمر بن الخطاب ثم لدى عثمان بن عفان . وخرج إلى الشام فذهب أول الأمر إلى بيت المقدس وهناك قابل العابد البصرى عامر ابن عبد الله[٣] ونحن نعلم أن عامراً كان قد نفى إلى بيت المقدس . فسكن حمص ومات بها سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان . هذا هو التاريخ الظاهرى لهذا الرجل فهل كان هناك جزء باطنى داخلى يكمن

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٥٢٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج١ ص ٢٢٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج٥ ص ٣٨٠ .

فى حياته وفى كلماته . لقد كانت اليهودية فى حمير – كما هو معروف . واشتهر من بين هؤلاء اليهود آل ذى رعين . وكان منهم ملوك حمير . . . وهنا نتساءل : هل كانت اليهودية فى حمير – يهودية كتابية ساذجة ، نصية تستند فقط على التقليد ، أم كانت يهودية قبالية ، تسودها الأساطير ، وتنفذ فى أعماقها الحروف ، وتعمل أيضاً فى الصنعة ، وبخاصة أننا نجد فى أخبار جابر بن حيان نفسه ذكراً لأستاذه «حربى الحميرى» وكان كعب الأحبار على معرفة بعلم النجوم . وقد حاول عبد الله بن عمرو ابن العاص أن يتعلم منه هذا العلم[1] ونهاه كعب . وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يدعى التزهد ، ويتنمس به . ويبدو أنه وجد ضالته فى كعب ، فكعب أيضا يعلن التزهد ، ولكنه فى الوقت نفسه عالم بالنجوم ، ويكثر التنبؤ . وقد تنبأ لعمر بن الخطاب بمقتله كما نهاه عن الخروج إلى العراق «إن بها تسعة أعشار السحر ، وبها فسقة الجن ، وبها الداء العضال[2] » وهذا يدل على معرفته بالسحر ، ووجوده فعلا فى حلقات متعددة بالعراق . وكان كعب يتكلم عن الفتنة الآتية ، ويتنبأ بها . ونراه يقف بجانب عثمان فى نزاعه مع أبى ذر ، فهل كان يعمل لهذه الفتنة الآتية من هذه الناحية ، بينما يعمل عبد الله بن سبأ اليهودى اليمنى الآخر إن صح وجوده – فى الناحية الأخرى . هذا يشعل الفتنة للعثمانية وللأموية وذاك يشعل الفتنة لعلى ولبنى هاشم . وستعيش أسرة كعب فى الشام بعد فى خدمة الأمويين كما نجد فى أخبار الأمويين أنفسهم ذكرا لابن زوجة كعب اليهودية ، وقد كان يهودياً يعمل فى السحر والتكهن والطلسمات ، ويتصل بخالد بن يزيد بن معاوية وأولاده ، لعل هذا أن يفتح الباب أمام شباب الباحثين لكى يتعرفوا الصلة بين التصوف والكيمياء فى أول نشأة التصوف فى العالم الإسلامى . . .

وأياما كان الأمر ، فقد حمل كعب الأحبار أو حمله مؤرخو الزهد والتصوف : الكثير من بذور الزهد والتصوف . ولست أود أن أخوض فى إسرائيليات كعب فقد حمل بلا شك إلى قلب العالم الإسلامى ، الكثير من الأخبار عن موسى وعن عيسى كما كان أول من نشر أحاديث التجسيم «ما من ليلة إلا والجبار تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : ألا من سائل فيعطى ، ألا من تائب فيتاب عليه ، ألا من مستغفر ، فيقول . . . . . إلخ[3] وقد أثرت هذه الإسرائيليات وغيرها فى المشبهة والمجسمة – منذ مقاتل بن سليمان إلى ابن تيمية ، ولعل هذا ما يفسر عطف ابن تيمية على كعب الأحبار وغيره من اليهود الذين أسلموا . فيقول عنهم «إنهم يحدثون بما عندهم من العلم ، وحينئذ يستشهد بما عندهم على

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج٦ ص ٣١ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج٦ ص ٢٣١ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٤ .

موافقة ما جاء به الرسول »[١] وقد صيغت هذه الإسرائيليات فى أحاديث نبوية ، كما كان كعب الأحبار أول من تكلم بالتفصيل عن الكرسى ووصف الجنة والنار ، وعذاب القبر . . . وغيرها مما دخل فى التراث الحديثى . كان كعب الأحبار يفسر القرآن بالإسرائيليات وكان الصحابة يستمعون إليه وعين عمر بن الخطاب تراقبه : ولم يمس الرجل فيما ترك لنا من روايات التوحيد أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : وهذا ما كان يهتم به الصحابة الأولون . أما ما كان يلقيه من حكايات وروايات . فكانوا يستمعون إليها ، ترويحاً للنفس ، وتعطشاً لقصص الأقدمين . وقد اتهم العباد والزهاد والصوفية من بعد بأنهم ليسوا من أصحاب الحديث وإنما هم (أصحاب حكايات) ، ولعل كعب الأحبار قد استن لهم هذه السنة . ويذكر الذهبى فى تذكرة الحفاظ « أخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة »[٢]

وبعد : فما هى أهم الآراء التى نادى بها كعب الأحبار فى محيط موضوعنا فى هذا الكتاب . . . لقد تكلمنا من قبل عن إعلانه لفكرة الجوع – ولن نعود إليها الآن أما عن الزهد فقد كان كعب الأحبار من أوائل من نطقوا بمصطلح الزهد : نراه يقول « المؤمن الزاهد والمملوك الصالح آمنان من الحساب ، وطوبى لهم كيف يحفظهم الله فى ديارهم ، إن الله إذا أحب عبده المؤمن ، زوى عنه الدنيا ليرفعه درجات فى الجنة ، وإذا أبغض عبده الكافر ، بسط له الدنيا حتى يسفله دركات فى النار . . . . . » كما يذكر أيضاً الصابرين والفقراء . ثم يردد كلمة الرهبان وثيابهم – آنا فى مقام الذم . . . قال موسى عليه السلام « تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الجبارين ، والذئاب الضوارى فإن أحببتم أن تبلغوا ملكوت السماء ، فأميتوا قلوبكم لله [٣] . وآنا فى مقام المدح « إنى لأجد نعت قوم يكونون فى هذه الأمة بمنزلة الرهبانية قلوبهم على نور » ثم يستخدم فى نفس النص الجوعية ، والمتحابين فى الله . ثم يذكر أيضاً « الصافون والمسبحون والأوابون[٤]. ويدعو إلى البكاء « ما من رجل بكى من خشية الله ، فتسيل دموعه على الأرض ، فتقطر فتصيبه النار أبدا حتى يرجع قطر السماء إذا وقع على الأرض من السماء » ، ويردد هذا ثانية « لأن أبكى من خشية الله ، فتسيل دموعى على وجنتى أحب الرب من أن أتصدق بجبل من ذهب[٥] » كما يدعو إلى الذكر « أنيروا بيوتكم بذكر الله ، واجعلوا فى بيوتكم حظا من صلاتكم » ويستن سنة الصمت « قلة النطق حكمة ، فعليكم بالصمت »[٦] وأخيراً يعلن جوهر التصوف الحقيقى فى الإسلام « لوددت أنى كبش أهلى . فأخذونى فذبحونى ، فأكلوا

---

(١) ابن تيمية : نقضى المنطق ص ٩٣ .
(٢) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٥ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٣٦٥ .
(٤) نفس المصدر : ج ٥ ص ٣٨١ – ٣٨٣ .
(٥) نفس المصدر : ج٥ ص ٣٦٦ .
(٦) نفس المصدر ج٥ ص ٣٦٧ .

وأطعموا أضيافهم »[١] وهذا مقام ذبيح إبراهيم،وسيسود التصوف بعد . بل هناك احتمال أن كلمة التصوف-كما ذكرنا من قبل-قد اشتقت من صوف كبش إبراهيم . وتكلم كعب الأحبار أيضا عن أسماء الله واستخدامها فى الدعاء . أو بمعنى أدق ، كان من أوائل من تكلموا عن الاسم الأعظم[٢]كما كان أيضاً وأخيراً : يقول الذهبى إنه «من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب[٣] . . . ويذكر أبو الدرداء كعباً فيقول «إن عند ابن الحميرية لعلماء كثيراً»[٤] » ولا شك أنه كانت هناك صلة بين الاثنين ، وقد عاشا فى الشام .

وبعد : فإنى أعتبر كعب الأخبار أيضاً – وبسبب بيئته اليهودية الأولى – من أوائل من عرفوا علوم الكبالا اليهودية علوم النجوم وعلوم العدد وبعض إلمام بعلم الصنعة ولعلنا نجد فيه أول مصدر لالتقاء علم الصنعة بالروحانيات . ولكن المسألة تحتاج إلى بحث أوسع .

## ٨–نوف البكالى

وقد أثر كعب الأحبار وإسرائيلياته فى عدد من عباد الشام والبصرة وكان من رواته مطرف بن عبد الله ابن الشخير العابد البصرى أما عباد الشام الذين تأثروا به فمنهم نوف بن أبى فضالة البكالى[٥] والمعروف أيضاً بالشامى . وكان أكثر ما تركه نوف البكالى إسرائيليات ، وقد ذكر المؤرخون عنه أنه كان يقرأ الكتب . . . وبدأ خلال هذه الإسرائيليات يتنبأ بالفتن المقبلة . . . وكانت الفتنة بين المسلمين وقد أشعل أوراها فعلا بعض اليهود – قد بدأت وكان نوف يقول «إنى لأجد أناساً من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل أقواماً يحتالون للدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئب . يقول الرب تعالى : فعلى تجترؤون وبى تغترون ، حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة نترك الحليم فيها حيران» ثم بدأت تلك الإسرائيليات على لسان نوف وغيره تقدس جبل الطور ، وسيأخذ جبل الطور مقامه الكبير لدى الصوفية فيما بعد . يقول نوف البكالى «أوحى الله إلى الجبال – إنى نازل على جبل منكم ، فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال : أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمر عليه» وعلى جبل الطور ، نودى موسى فقال . من أنت الذى تنادينى . . . قال : أنا ربك الأعلى . ويذكر صاحب الحلية أن نوفاً كان يجتمع هو وعبد الله بن عمرو بن العاص . فكان نوف يحدث عن التوراة وعبد الله بن عمرو يحدث عن الرسول ومضى نوف

---

(١) نفس المصدر : ج ٥ ص ٣٦٦ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج٦ ص ٨ .
(٣) الذهبى : تذكرة ج١ ص ٤٥ .
(٤) ابن سعد :طبقات ج ٧ ص ٦٤٤ .
(٥) نفس المصدر : ج ٦ ص ٤٨ ، ٥٠ .

البكالى يتنقل بين البصرة والكوفة ومصر ويعود إلى الشام ، وهو فى كل هذا يقص فى المساجد وينشر الإسرائيليات . وتضيق أم الدرداء وهى تجد أمر هذا القصص الغريب يعظم ويكبر ، وكانت المرأة قد حملت بعد وفاة زوجها . قيادة حركة العبادة فى الشام ، أرسلت إلى نوف البكالى ورجل آخر معه يقصان فى المسجد تقول : اتقيا الله ، ولتكن موعظتكما لأنفسكما .

ويذهب نوف البكالى إلى الكوفة متتلمذاً على على بن أبى طالب ، ويذكر نوف أنه رأى عليًّا خرج ، فنظر إلى النجوم ، ثم نادى نوفا فقال . يا نوف أراقد أنت أم رامق . قال : بل رامق – يا أمير المؤمنين . فقال على . يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا ، والراغبين فى الآخرة . أولئك قوم اتخذوا الدنيا بساطا . وترابها فراش ، وماءها طيبا ، والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً فرضوا الدنيا منها على منهاج المسيح عليه السلام . يا نوف . إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن مر بنى إسرائيل أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتى إلا بقلوب طاهرة . وأبصار خاشعة وأيد نقية . فإنى لا أستجيب لأحد منهم ، ولأحد من خلقى عنده مظلمة . يا نوف : لا تكونن شاعراً . ولا عريفاً . ولا شرطيًّا ولا جابيًا ولا عشاراً . فإن داود عليه السلام قام فى ساعة من الليل فقال : إنها : ساعة لا يدعو عبد إلا استجيب له فيها – ألا يكون عريفاً أو شرطيًّا أو جابيًّا أوعشاراً أوصاحب عرطبة – وهى الطنبور . أو صاحب كوبة – وهى الطبل[1] ومع أننى أشك فى صحة نسبة النص إلى على بن أبى طالب . غير أنه من الظاهر أنه محاولة لربط أوائل الحياة الروحية – حتى فى الشام – بعلى بن أبى طالب . وهى محاولة حقيقية ، فقد كان على بن أبى طالب – كما قلنا من قبل – المثال الأكبر لرواد الروح فى الإسلام .

وكبرت مدرسة كعب الأحبار عند الكثيرين – كما قلت – حيلان بن فروة وشهر بن حوشب ومغيث بن سمى وغيرهم ولكن هل لم يكن ثمة زهد إسلامى خالص .

## ٩–عمرو بن الأسود السكونى

إن الجوعية[2] فى الشام وجدت مستجيبين لها فى مجموعة من خلص التابعين من أمثال عمرو بن الأسود السكونى وقد قال عمر بن الخطاب فيه «من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود» وقد تجافى عمرو بن الأسود عن الشهرة . كما تجافى عن الشبع يقول «لا ألبس مشهورا أبدا . ولا أملأ جوفى من الطعام بالنهار أبداً حتى يوم القيامة» ويذكر أنه كان

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج٦ ص ٤٨ – ٥٤ .

(٢) ابن الجوزى : صيفة ج ٤ ص ١٧٢ – ١٨١ ،

يدع كثيراً من الشبع مخافة الأشر. وكان إذا خرج من بيته إلى المسجد قبض بيمينه على شماله مخافة الخيلاء». وكان من هؤلاء التابعين الخلص العبادة ، يزيد بن الأسود . وقد استشفى به معاوية . حين أقحطت دمشق . . . صعد معاوية المنبر وقال «اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا . اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود» . فأمطرت السماء . وكذلك كان من هؤلاء العباد أبو عبد الله الصنابحى . وشرحبيل بن السمط بن الأسود الكندى . وقد لجأ شرحبيل إلى العزلة . وقد ذهب إليه أبو الدرداء وسأله «ما يحمله على اعتزال الناس» فقال : «إنى أخشى أن أسلب دينى وأنا لا أشعر» وكذلك يزيد بن مرثد – أبو عثمان النهدى «وقد استن أيضاً سنة البكاء . كما أنه رفض القضاء . مدعياً الجنون والتحمق . وسيأخذ الصوفية هذا فيما بعد . ومن هؤلاء أيضاً «عبد الله بن محيريز . وقد رفض هدايا عبد الله بن مروان وعبد الملك فى جبروته وسطوته[1]

كما كان عبدا لله بن محيريز يهاجم الحجاج . فهدده الخليفة بأنه سيرسله إليه قائلا : والله لتنيين عنه أو لأبعثن بك إليه ، وقد ورد عن عبد الله بن محيريز لمحة صوفية جميلة وهى قوله «كلكم يلقى الله تعالى . ولعله قد كذبه»[2] .

## ١٠ – أبو مسلم الخولانى ومدرسته :

ولكن كانت فى الشام صورة من صور العبادة تتمثل فى أبى مسلم الخولانى . وقد كان أحد الثمانية من التابعين الذى انتهى الزهد إليهم ، فيما يقول مؤرخو الرجال[3] وقد أتى أيضاً من اليمن . وهو يشبه فى هذا كعب الأحبار . وانتقل إلى الشام كما انتقل كعب وتذكر بعض الروايات أنه أسلم فى عهد الرسول ولكن لم تصح له الصحبة . فقد وصل إلى المدينة بعد أن قبض الرسول : وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى أن إسلامه تأخر إلى عهد معاوية . . . وهو فى هذا يشبه كعباً ، بل أعجب به كعب – وأطلق عليه «حكيم هذه الأمة»[4] فلا شك أنه كان بين الرجلين صلات : فهل أخذ أبو مسلم عنه أيضاً . إن الأمر يحتاج إلى تحقيق أشمل .

ولقد كان أبو مسلم الخولانى على رأس القراء – وحاول أن يتوسط فى الفتنة بين على ومعاوية . ولكنه ما يلبث أن يأخذ جانب معاوية . ويقف معه . بل يحض على الضرب والطعان [5] وقد كان

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ١٤٢ ، ابن الجوزى صفة ج٤ ص ١٧٢ – ١٨١ .

(٢) أبو طالب : قوت ٤ ص ١٨١ وأبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ١٤٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج٥ ص ٨٧ ، ١٢٣ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢٤ .

(٥) ابن مزاحم المنقرى : وقعة صفين ص ٨٥ ، ٨٦ .

كعب الأحبار بعد هذه الفتنة فى الشام ويتكلم عنها . ويتنبأ بها .

وأيًّا ما كان الأمر ، إذا انتقلنا إلى الجانب الزهدى فى حياة أبى مسلم فإننا نرى أنه تابع تقاليد مدرسة كعب الأحبار فى الزهد متابعة تكاد تكون تامة .

وقد نسب إليه مؤرخو الطبقات موقفاً إبراهيميًّا . إذ ألقى به الأسود العنسى متنبى اليمن فى النار حين رفض أبو مسلم أن يشهد بأنه رسول الله . فلم تضره النيران . . . وبهذا حقق – وكما سيقول ذلك فيما بعد عمر بن الخطاب مقام إبراهيم [١] وانتقل أبو مسلم إلى المدينة . وكان الرسول قد قبض . فلزم الصحابة ، ثم انتقل إلى الشام مجاهداً ، وذهب مرات عديدة فى غزو الروم . وقد أخذ أبو مسلم أول الأمر الحديث عن معاذ بن جبل . ثم اتصل بكعب الأحبار : وأخذ عنه الكثير من الإسرائيليات : وكان كعب يحاول علاج شهوة الشهرة فيه بأقوال من التوراة ثم أصبح أثيراً لدى معاوية ووقف ينادى معاوية فى المسجد ومعاوية فى أوج مجده الدنيوى ، بلقب الأجير . وينهاه عن ظلم الناس . . . وكان يطوف « ينعى الإسلام » فلما دعاه معاوية قال له « أنت أحدوثة قبر عن قليل . . . » وينادى مرة أخرى – ومعاوية عن المنبر « إنما أنت قبر من القبور [٢] وكان معاوية يعرف معاونته له فى حرب على . فكان يقابل عظاته بالحلم والصبر .

عاش أبو مسلم الخولانى حياة زاهدة فعلا . وكان يتزعم فريق القراء . وكان الجميع يجلونه ويكرمونه . وكما يذكر هو نفسه . ولكن كعب الأحبار يصرخ فيه « إن التوراة تقول إن أعدى الناس بالرجل الصالح قومه يخاصمه الأقرب فالأقرب » ويرد أبو مسلم « وصدقت التوراة » ومنذ ذلك الحين والرجل يمضى أشعث أغبر ، يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ، وكان يقول « اذكروا الله حتى يرى الجاهل أنكم مجانين [٣] .

وأخذ فى تعذيب نفسه وبدنه ، فكان يقول لأصحابه « أرأيتم نفساً إن أنا أكرمتها ونعمتها وودعتها ، ذمتنى غداً عند الله ، وإن أنا أسخطها وأنصبتها وأعملتها ، رضيت عنى غداً . . . قالوا : من تيكم يا أبا مسلم . قال : تيكم والله نفسى [٤] . . . أما تعذيب الجسد . . . فكان أن علق سوطاً فى مسجده ، فإذا أحس بفتور فى تعبده ، مشق مأقه ، سوطاً أو سوطين . . . وكان يقول أنا أولى بالسوط من الدواب » وتلك طريقة فى تعذيب النفس لم يعرفها عباد المسلمين ، فهل أخذها من الرهبنة

(١) أبو نعيم : الحلية ج٢ ص ١٢٨ – ١٢٩ ، وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٨٠ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢ – ١٢٨ .
(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٢٤ – ١٢٦ .

المسيحية ، وبخاصة أن بعض أنظمة من هذه الرهبنة كانت تتخذ التعذيب الجسدى للجسد أداة لها . . . إن بعض الرهبان فى ضواحى حمص ، كانوا يعرفونه وكانوا يذكرون . . . «إنه رفيق عيسى ابن مريم فى الجنة» ولا شك أن أبا مسلم فى غزواته إلى بلاد الروم ، عرف الكثير من هؤلاء الرهبان .

ولم تعد للدنيا عنده ذرة من غاية أو همة . . . فكان لا يجالس أحدًا فى المسجد . . . ولا يستمع لخوضهم فى الدنيا . . . «إنى أبصرت الغاية ، وإن لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت ، فسابق ومسبوق» وعجب من الناس ، وأخذ يردد قول كعب الأحبار «كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فإنهم اليوم شوك لا ورق فيه» . . . ووقف على خربة فقال «يا خربة أين أهلك ، ذهبوا وبقيت أعمالهم ، وانقطعت الشهوات ، وبقيت الخطية . ابن آدم : ترك الخطية أهون من طلب التوبة» ولكنه ما لبث أن زهد حتى فى الأعمال[١] .

وأخيراً . . . أخذ أبو مسلم يتكلم فى المحبة ويورد عن معاذ بن جبل حديث رسول الله فى الحب «المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء» ثم عن عبادة بن الصامت الحديث الآخر «حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين فى ، وحقت محبتى للمتناصحين فى»[٢]

وتوفى أبو مسلم الخولانى فى خلافة معاوية فى بعض الأقوال ، وفى خلافة ابنه يزيد فى بعض الأقوال الأخرى : وقد أصبحت حياته الروحية اللهم إلا فى جانبها الأموى ، مثلا لحياة العباد فى الشام ، فكان الكثير منهم يتبعون خطاه ، فكانوا يأخذون أنفسهم بالجوع ، وينفذون طريق الجوعية تنفيذاً كاملاً ، ونرى المؤرخين يحاولون صوغ حياة هؤلاء مشابهة لحياة العباد فى العراق ، فرجاء بن حيوة أبو المقدام الكندى يضاهى ابن سيرين فى العراق[٣] وبلال بن سعد بالشام ومصر يضاهى الحسن البصرى[٤] . وهكذا كان رجاء بن حيوة يصحب الخلفاء والأمراء ليأمرهم بالمعروف . . . وكانت تلك سنة أبى مسلم الخولانى . . . وكان عبد الله بن زكريا الخزاعى الدمشقى . . . يتابع سنة أبى مسلم الخولانى أيضاً فى الصمت عما لا يعنينى عشرين سنة قبل أن أقدر منه على ما أريد» وكان يردد قولا ذكره من قبل عباد البصرة «والله : للبس المسوح وسف الرماد ونوم على المزابل مع الكلاب ليسير فى مرافقة الأبرار»[٥] وسادهم جميعاً فكرة الحزن . ويعبر عنها بلال بن سعد بقوله[٦] «واحزناه على أنى

---

(١) أبو نعيم : ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٦ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣١ .
(٣) ابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٨٦ – ١٩٠ .
(٤) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٨٦ – ١٩٠ .
(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩١ .
(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ١٥٠ .

لا أحزن » . . . ولكن ما يلبث أن يعطى ابن سعد لخلق الإنسان – الأمل الوردى الجميل التفاؤلى فيدعو أهل الدنيا – أهل الخلود ، والبقاء ، إنهم ينتقلون من دار إلى دار « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم منقولون من دار إلى دار [١] وأخذ يردد هذه المعانى فى لمحاته الجميلة « عباد الله إنكم تعملون فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقام ، وفى دار نصب وحزن ، لدار نعيم وخلد ومن لم يعمل على اليقين ، فلا يتغنى ، عباد الرحمن – هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم يقبل منكم ، أو شيئاً من أعمالكم غفر لكم » لذلك دعا إلى اجتناب الخطيئة مهما صغرت « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر من عصيت . . . » وتأمل الجيل الأول ، وقد أخذ عنهم الكثير فقال « أدركتهم يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا كان الليل كانوا رهباناً » وهنا يضع بلال بن سعد الفارق الكبير بين رهبانية النصارى وعباد المسلمين . إن عباد المسلمين يقضون النهار فى أغراض الحياة ، وفى تقلباتها ، فإذا ما أقبل الليل انقلبوا رهباناً [٢] . وقد وصف ضمرة بن حبيب العابد الشامى بأنه كان إذا قام إلى الصلاة قلت « هذا أزهد الناس فى الدنيا ، فإذا عمل للدنيا قلت : هذا أرغب الناس فى الدنيا [٣] » ويستندون فى هذا على حديث للنبى صلى الله عليه وسلم : « إن من خيار أمتى – فيما أنبأنى الملأ الأعلى قوم يضحكون جهرًا من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سرًا من خوف عذابه ، مؤونتهم على الناس حقيقة ، وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ، أجسامهم فى الأرض وأقتدتهم على العرش [٤] .

وكما انتشر البكاء فى البصرة ، انتشر فى الشام لدى عبادها ، فنرى أبا بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى هو وكثيرون من العباد يكثرون البكاء ويذكر أنه لأبى بكر الغسانى هذا مسلكاً من الدموع فى خديه [٥] . كما كان إسماعيل بن المهاجر : يكثر من البكاء ، وينسب إلى النبى داود حين عوتب فى كثرة البكاء قوله : « ذروني أبكى قبل يوم البكاء ، قبل تحريق العظام واشتعال اللحى . . . [٦] » وكان أمية الشام يبكى وينتحب حتى يعلو صوته وحتى تسيل دموعه على الحصى . وأرسل إليه الأمير يخبره إنك لتفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك ، وارتفاع صوتك ، فلو أمسكت قليلاً . فبكى

---

(١) ابن الجوزى : ج ٤ ص ١٩٠ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٢٢٤ ، ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٩٠ – ١٩٥ .
(٣) الحلية ج ٦ ص ١٠٣ .
(٤) أبو طالب : قوت القلوب ج ١ ص ٥٢٣ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٨٩ .
(٦) نفس المصدر : ج ٦ ص ٨٥ .

الرجل وقال : إن حزن يوم القيامة ورثى دموعاً غزاراً فأنا أستريح إلى درتها أحياناً [١] » . وكان العباد يأتون من البصرة . . . كما كانوا يأتون من الكوفة ، ويستقرون فى الشام .

أتى من البصرة حسان بن عطية ، واستقر فى الشام . . . وقد أثر حسان بن عطية فى الإمام الأوزاعى : وقد اشترك الاثنان فى مجادلة غيلان الدمشقى فى عقيدته القدرية . وكان العباد يؤمنون جميعاً بعقيدة الجبر المطلق . وقد سار حسان بن عطية على سيرة العباد جميعاً من قيام وصلاة . وقد ذكر أيضاً أنه كان على صلة بالرهبان ، يقابلهم ويؤمن على دعائهم . فلما عوتب قال : أرجو أن يستجيب الله له فى ، ولا يستجيب له فى نفسه [٢] » . ومهما كان الأمر ، فإن عباد الشام اتصلوا بالرهبان ، وسيكون عن هذا الاتصال أثر عميق فى التصوف وفى الكلام ، سواء بالأخذ أو بالنقد .

وأتى من الكوفة القاسم بن مخيمرة ، وقد أثر أيضاً فى الأوزاعى وروى الأوزاعى عنه . وقد كان القاسم من أشد عباد المسلمين ورعاً ، ومحافظة على سنن الإسلام ، وتميز عن عباد الشام جميعاً بهذا . وقد أعلن بدون مواربة : «كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام عروة عروة» ثم لزم الخليفة الأموى العابد عمر بن عبد العزيز . وكان القاسم أيضاً ينادى بالجوع ، كما كان يفعل عباد الشام [٣] . وأتى أيضاً من الكوفة عن عبادها عبدة بن أبى أمامة والحسن بن الحر .

وأخيراً . . . تظهر صورة أخرى لأبى مسلم الخولانى ممثلة فى شخص ثور بن يزيد . وقد أثر ثور ابن يزيد فى رباح القيسى العابد البصرى المشهور كما ردد أحاديثه سهل بن عبد الله التسترى . وكان ثور يؤيد حياته الروحية بالإسرائيليات . . . وكان يقول «كان من كلام المسيح عيسى عليه السلام : من علم وعمل وعلم ، كان يدعى عظيماً فى ملكوت السماء» ثم يعلن فكرة الحب وأنه قرأ فى التوراة «أن القلب المحب لله يحب النصب لله» ويذكرا «علم اليقين» وهو المصطلح القرآنى — فيفسره بما قرأه ببعض الكتب ، أى ببعض الإسرائيليات : «مكتوب فى بعض الكتب : إن سرك أن تعلم علم اليقين فأجب فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا» ويدعو للجوع أيضاً من الكتب القديمة أى من الإسرائيليات «قرأت فى بعض الكتب : قل للذين يتظامئون ويتجوعون للبر ، أولئك الذين يأوون فى حظيرة القدس عندى» ويدعو للمناجاة من كلام عيسى بن مريم أيضاً فيقول «قرأت فى التوراة أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريين : كلموا الله كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً : قالوا : وكيف نكلم الله : قال اخلو بمناجاته ، اخلوا بدعائه [٤] .

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٩٦ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٧٣ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٧٩ ، ٩٣ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٩٣ — ١٠٠ .

## ١١ – المدرسة الجوعية والأسرة الأموية :

وأخيرًا . . . إن المدرسة الجوعية – مدرسة العبادة ، مدرسة الروح الأولى فى دمشق تكونت ، كما تكونت المدارس الروحية فى البصرة والكوفة وغيرها من المدن الإسلامية ، وسارت فى نفس المراحل التى سارت فيها مثيلاتها ـ كثرة الصلاة والقيام والحزن والبكاء ـ والعطش والجوع . . . ولم تظهر كلمة الزهد أو التصوف بوضوح . . . وإن كانت قد ظهرت الكلمة الأولى أحياناً على لسان العباد ، فلم تحمل أدنى معنى اصطلاحى . . . وظهر تعذيب الجسد ، ثم نجات من الحب الإلهى وأما المصدر الخارجى . . . فكان إسرائيليات ، انتشرت فى كل مكان ، واستمعها العباد فى كل مكان . ثم اتصالات بالرهبان ، لم يكن فيها نغمة التأثر ، بقدر ما فيها من محاولة لتدعيم الحياة الروحية القرآنية بدلائل وأخبار من كتب اليهود والمسيحيين . حقًّا إن اتصال الشام بالمسيحية وباليهودية كان أكثر من اتصال العراق أو فارس . ولكن ؛ إن هذا الاتصال – كما رأينا – يشبه فى ذلك أيضاً اتصال العراقيين بالمسيحية ، إنما كان اتصالاً فى طريق الحياة الأخلاقية . وليس بين الدينين ثمة اختلاف فى هذه الناحية الهامة . ولكن إذا تخطى الأمر هذه الناحية الأخلاقية ، ومس مسائل اللاهوت ، انقلب الوئام خصاماً – وتنازع الفريقان أشد النزاع .

ومن الخطأ القول : إن الأمويين ، وقد كانوا حكاماً دنيويين ، قد حاربوا الحياة الروحية الإسلامية ، أو عاونوها . لم يكن يأبه هؤلاء الأمويون بأمر الدين أو بتمكنه من النفوس ، ولكنهم فى الوقت نفسه راعوا مظاهره ، واحترموا – وبالأخص فى الشام ، عباد المسلمين . بل إن معاوية ، وقد كان رقيق الإيمان ، ضعيف التدين ، قد استخدم هؤلاء العباد فى براعة نادرة . وكان لا بد له أن يفعل هذا – وقد كان قريب العهد من النبوة ، وكان ما زال بعد – فى الحياة – عدد من الصحابة والتابعين فى موطن حكمه . وكان من هوى الدولة – كما قلنا – أن تنتشر عقيدة الجبر ، وهى عقيدة العباد جميعاً فى أمصار الإسلام ، لدى المسلمين . واستخدم عبد الله بن عمرو بن العاص وقد كان هو أيضاً من أعمدة الأمويين كأبيه ، أداة التعبد ، يخدع بها المسلمين . . . وكان يبحث عن علم النجوم ، وتتلمذ على كعب الأحبار ويحاول أن يتعلم من هذا اليهودى الغريب أسراره ، ويرده الرجل . أراد هذا الغنى المترف أن يظهر للمسلمين بمظهر الغنوصى الملىء بالأسرار . . .

وأتى يزيد . . . وكان عهده ، عهداً جاهليًّا ، قتل فيه العترة الطيبة من آل البيت ، واشتعلت الحياة الروحية فى الإسلام اشتعالاً ، وساد المسلمين جميعاً الآلام النفسية المبرحة . . . وانعكست الآلام على بيت الطاغية نفسه ، فما أسلم الروح وتولى ابنه خلافة المسلمين ، حتى اعتلى المنبر يقول

«أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء أنا بوزرها ومنعها أهلها. كلا إني لبريء منها»، واعتكف حتى مات.

وأما أخوه خالد بن يزيد، فقد انتهى به القلق وفقدان الملك – إلى الكيمياء كما سنرى فيما بعد. وسيرى البعض فيه «أبا هاشم الكوفي الصوفي» أول من تلقب بالصوفي. ولست أذهب إلى هذا الرأي، ولكن مما لا شك فيه أن خالد بن يزيد بن معاوية عاش في قلق نفسي بالغ، وسواء كان اشتغاله بالصنعة عن رغبة دنيوية أو رغبة أخروية، فقد وضع لطائفة من الزهاد بعد ذلك سنة الاشتغال بالكيمياء، ومحاولة تغيير المعادن، ونشأ عنها كيمياء الصوفية، كيمياء الروح، وتغيير المعدن الإنساني الكثيف – البدن – إلى معدن روحي لطيف الروح.

وأما الابن الثالث عبد الله بن يزيد... فيلجأ إلى يهودي يتعلم منه السحر والنجوم... كما سنبين هذا فيما بعد.

وأما الابن الرابع ليزيد وهو عبد الرحمن بن يزيد، فقد خضع لعبد الملك بن مروان طاغية بني مروان... وأصبح خلاله، فلما مات عبد الملك. وتفرق الناس عن قبره، وقف عليه وحيدًا: فقال: أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك، وتوعدني فأخافك. أصبحت وليس معك من ملكك غير ثوبيك ليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين» ثم انكفأ إلى أهله، وانقطع للعبادة «حتى صار كأنه شن بال»[1].

ومن صلب بني مروان ظهر عمر بن عبد العزيز، وقد سئل الإمام محمد الباقر عنه فقال: أما علمت أن لكل قوم نجيبة، وأن نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز، وأنه يبعث يوم القيامة وحده[2] ولسنا نتكلم هنا عن عدله، وقد استفاضت الكتابات عنه. وكثرت الأسطورة... كانت الذئاب تمرح من الشياه – وكان وكان... بل إن خالد بن يزيد بن معاوية: صاحب الكيمياء والنجوم يتنبأ بعدله قبل ولايته، وإنه إمام هدى»[3] وكذلك ابن سيرين. ويقول الحسن البصري «إن كان مهدي، فعمر بن عبد العزيز، وإلا فلا مهدي إلا عيسى بن مريم»[4].

ويقول مالك بن دينار «يقولون مالك بن دينار زاهد. إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا، فتركها» وكان عمر بن عبد العزيز يلبس القميص المرقع، كما كان من البكائين. وكان يبكي، فتبكي امرأته وأولاده، ويشهق ويغشى عليه، حين يذكر الموت[5]. «وكان له بيت في جوف بيت يصلي فيه لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل، وضع الغل في عنقه، فلا زال يناجي ربه

---

(١) ابن الجوزي: صفة ج ٤ ص ١٨٧.

(٢) أبو نعيم: الحلية ج ٥ ص ٢٥٤.

(٣، ٤) نفس المصدر: ج ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(٥) أبو نعيم: حلية ج ٥ ص ٦٢٨ – ٦٢٩.

ويبكى . وكان عمر – كعباد البصرة والكوفة – يذهب إلى القبور يناجيها وتناجيه : يقول « نادانى القبر من خلفى – يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألنى : ما صنعت بالأحبة . قلت : بلى . قال : خرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصصت الدم وأكلت اللحم ، ثم يمضى عمر فى وصف الجثث البالية – ثم بكى وقال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير . . . وكثرت مواعظه القبرية . بل كان الموت موعظته الكبرى – وحين أرسل إلى صديق له يعزيه قال : فإنا قوم من أهل الآخرة ، أسكنا الدنيا ، أموات أبناء أموات ، والعجب لميت يكتب إلى ميت ، يعزيه عن ميت [١]

وكان عمر بن عبد العزيز طرازًا فريدًا – فى الشام – من الزاهدين الوعاظ ولكن هل ترك الرجل لمحات تدخل فى باب التصوف . . .

إن رجلاً يسأل : يا أمير المؤمنين : كيف أصبحت فيقول . أصبحت بطيئاً بطيئاً ، متلوثاً فى الخطايا ، أتمنى على الله الأمانى » ثم يتكلم على دواء القلوب « لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب » وستكون القلوب وحركات القلوب شغل الصوفية ، فيما بعد . ثم يتكلم عن الاستتار – إخفاء ما فى النفس ، وإخفاء الذنوب والخطايا . . . « يا معشر المستترين : اعلموا أن عند الله مسألة فاضحة . قال تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كان يعملون [٢] ومات ابنه عبد الله وكان أيضاً كأبيه من عباد المسلمين ، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار ينهى أن يناح عليه – وقال فى خطابه « إن الله أحب قبضه وأعوذ بالله أن أخالف محبته » [٣]

ودعا إلى ذكر الله باللسان ، ولكنه يقول « الفكرة فى نعم الله أفضل العبادة [٤] » وأخيرًا وضع نفسه فى قدر الله ، فى استسلام مطلق لإرادته « أصبحت ومالى سرور إلا فى مواضع القدر [٥] .

ومات عمر بن عبد العزيز وهو يردد « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا ، والعاقبة للمتقين » .

ولعل أحدًا من عباد المسلمين الذين شاركوا فى إقامة الحياة الروحية فى الإسلام ، لم يبلغ شأو عمر ابن عبد العزيز كان الرجل يمثل سمات العابد المسلم الحقيقى الصادر عن روح الاسلام وكان يمثل خصائص المسلم الحقيقى الذى جمع فى أعطافه العقيدة الإسلامية الحقيقية . وقد وضح للمسلمين أجمل توضيح طريقة جمهور الإسلام فى تولى الصحابة . إنه يتولى الشيخين هؤلاء الذين أقاموا ركائز

(١) أبو نعيم : حلية ج ٥ ص ٢٦٦ .
(٢) نفس المصدر : ج ٥ ص ٢٨٨ .
(٣) نفس المصدر : ج ٥ ص ٣٠٦ .
(٤) نفس المصدر حـ ٥ ص ٣١٤ .
(٥) أبو طالب المكى : ياقوت ج ١ ص ٣٠٤ .

العدل فى هذه الدنيا » إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، فترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل ، فلم يستنقص منه شيئاً ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر ، فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقى ، حتى تركوه يابساً ، ليس فيه قطرة . لئن أبقانى الله ، لأسكرن تلك السواقى ، حتى أعيده إلى مجراه الأول[1] » وكان يحاول جهده أن يتبع سيرة الشيخين . . . ونحن نعلم أنه منع سب على . بل يعلن أمام الناس « أنا والله مولى على بن أبى طالب رضى الله عنه » وكان على مثاله فى حياة الروح كما كان عمر مثاله فى العدل المطلق .

لا جرم بعد ذلك أن قام بنو مروان بسمة . وقد أخبر بهذا – فلم يهتم ، بل مضى راضياً إلى مصيره . . . ومن العجب أن ينسج المستشرقون قصة خيالية عن إمارة إبراهيم بن أدهم ، وتخليه عن الإمارة ليعيش زاهداً صوفياً ، ويحاولون فى تعسف مضحك ، أن يجعلوا منه بوذا الثانى « بينما لم يتوقفوا عند عمر بن عبد العزيز – أمير المؤمنين ، الذى زهد فى الدنيا وفى الخلافة ، وهو صاحب هذه وصاحب تلك . إنه كان أمير المؤمنين الأخروى ، ولكن فى صورة محمد الثانى » .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٢٧٤ .

(٢) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٦٤ .

# الفصل الثانى

## تطور الفكرة الجوعية فى الشام

### مدرسة أبى سليمان الدارانى

كان لابد – وتلك سنة الحياة – أن تتطور الحياة الروحية فى الشام – من فكرة العبادة الأولى – وأساسها الجوع ، إلى أساس روحى أعمق وأكثر نفاذاً فى زوايا النفس الإنسانية ، وأن تظهر الحياة الروحية باسم الزهد ، وتقترب من التصوف ، أو بمعنى أدق من علم فى إرادة النفس وأخلاقها . وأن تتجمع تلك اللمحات الجديدة التى صدرت عن الجوعية ، عن عباد الشام فى نسق يشبه النظرية أو النظريات ، وأن يبدأ معالم العلم الجديد « التصوف » فى الظهور ويمكننا أن نقول : إن الزهد فى صورته الفنية – أو كمصطلح يجمع عباد المسلمين بدأ يتضح فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . وكما كان رجال القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى عباداً ألقوا ببعض الخطرات فى الزهد ، وبالقليل فى التصوف ، كان رجال النصف الثانى من القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث زهاداً ألقوا ببعض اللمحات فى التصوف .

وهنا يتراءى لنا تساؤلان (١) هل حدث هذا فى مدرسة الشام فقط ، أم فى غيرها من المدارس . (٢) هل ظهر مصطلح خاص برجال الزهد فى هذا الوقت .

أما عن التساؤل الأول : فقد حدث التطور فى جميع مدارس العبادة فى الإسلام بدأوا بالعبادة ، وكانوا قراء كما قلنا ، ثم اتجه بعض القراء إلى العزلة والانفراد ، وتميز القراء الخلص بالتحديث ، ولم يهتم العباد بالحديث ، ثم ظهر الفقه فى كل المدارس ، كعلم متوكل وكمدرسة جامعة ، فاختلف العباد ، مع الفقهاء ، وأخذوا يتميزون باسم « الزهاد » .

أما عن التساؤل الثانى : فإن الزهاد بلاشك فى مدرسة الشام وفى غيرها من المدارس بدأوا يستخدمون لغة خاصة . ستتضح لنا خلال بحثنا لنماذج منهم فى هذه المدرسة وغيرها من المدارس . وأخذوا يضفون على ألفاظ قرآنية وحديثية معان خاصة بهم . . . وكان هذا إيذاناً بتكوين المصطلح الصوفى ، وألفاظه وحدوده . وسنعود إلى بحث هذه المسألة – على صورة أوسع – حين ننتهى من بحثنا للمدارس كلها ، ونضع أسس نظرية انبثقت عن زهاد العالم الإسلامى كله .

### ١- أبو سليمان الدارانى وآراؤه :

ويتضح فى مدرسة عبد الرحمن عطية المشهور بأبى سليمان الدارانى ( المتوفى عام ٢٠٥ عند البعض و٢١٥ عند البعض الآخر ) الأمران معاً . فهو نهاية تطور فى مدرسة الشام ، وبدء لمرحلة جديدة . وقد اشتهر بشاميته ، ونسب إلى داريا ، قرية قريبة من قرى دمشق . ولكنه كان عراق الأصل ، من واسط المدينة التى بناها الحجاج . وكانت له فى العراق « أيام » كما كانت له فى الشام « أيام » بل كانت أيام العراق أيام عمل ، طريق السلوك وآدابه وكانت أيام الشام أيام معرفة ، أيام الفتوحات الربانية التجليات الإلهية ، « كنت بالعراق أعمل وأنا بالشام أعرف » كانت آداب السلوك إذن فى مطلع حياته فى بلده الأصلى « واسط » ، وفى تنقلاته إلى الكوفة وسماعه الحديث ، وأخذه عن سفيان الثورى ، وفى أسفاره إلى البصرة وأخذه عن الزاهد صالح بن عبد الجليل ، كما أخذ أيضاً عن معروف الكرخى ، ولعله ذهب أيضاً إلى بغداد [١] . ثم كان النضج فى الشام حين بدأت تفيض منه « الحكمة » وبالرغم من أنه – كما يقول ابن الجوزى – سمع الحديث الكثير ولقى سفيان الثورى وغيره ، ولكنه اشتغل بالتعبد عن الرواية [٢] » غير أن مؤرخى الصوفية يضعونه جميعاً فى نسق أهل الصوفية من أهل السنة .

وكان النزاع قد بدأ يشتد بين العابدين ، بل بين الزهاد ، وكان الزهد قد تكون – فى أواخر القرن الثانى – كطريق للحياة ، وبين الفقهاء . وكان الفقه بالمعنى الاصطلاحى قد بدأ يتكون أيضاً . ولذلك نرى أبا سليمان الدارانى وقد شعر ، كما يشعر غيره من الزهاد بأنهم غرضاً لحملة عنيفة من هؤلاء الفقهاء ، تعلن أنهم يخالفون طريق الكتاب والسنة . لذلك نراه يقول « ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً . فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة [٣] » أصبح الزهاد إذن طائفة ، وقد عبر عنهم أبو سليمان الدارانى بالقوم ، وأصبح لهم « نكت » أى أساليب خاصة فى المجاهدة والسلوك ، بل فى طرائف وحكم يلقونها بين الناس ، أى أصبح الزهد نظاماً ، عمليًّا ونظريًّا ، وكاد أن يقترب من التصوف .

وسنحاول أن نضع لمحات أبى سليمان الدارانى ، وقد وصلتنا فى شذرات متفرقة ، فى صورة تركيبية بقدر ما تسعفنا المصادر .

---

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨٩ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠٦ ، والنبهانى : جامع كرامات الأولياء : ج ٢ ص ١٤٤ .

(٣) السلمى : طبقات الصوفية ٨٩ .

(أ) **الطريق الصوفى : أو الحياة التأملية :**

قلنا إن أبا سليمان الدارانى قد عانى آداب السلوك فى العراق . وقد حمل معه إلى الشام ، أركان الحياة العملية : أى العمل الذى يعد العابد أو الزاهد لتلقى الأنوار الإلهية ، والفيض الربانى وهنا نتساءل هل ذكر مصطلح الطريق . إنه يقول : اختلفت إلى مجلس قاص ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلما قمت لم يبق فى قلبى منه شىء ، فعدت ثانياً . فبقى أثر كلامه فى قلبى حتى رجعت إلى منزلى ، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق[1] » فأبو سليمان الدارانى إذن قد عرف المصطلح . . . وبداية الطريق الصوفى عنده هو الليل . . .

وكان لليل فى حياة الروح عند المسلمين أكبر مكان . والمصدر الأول لهذه الحياة هو القرآن « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » ويخاطب القرآن الرسول فيقول « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » . . . ويذكر الله قيام الليل ، قنوته وقيامه ؛ حيث يختلط الحذر والرجاء « أمّن هو قانت آناء الليل ، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ». بل أهل الليل هم العلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . . . ثم يدعو الله إلى هذه العبادة الليلية « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » . . . « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » . « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » ، « وهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

فأهل الليل إذن هم عباد المسلمين على الحقيقة ، يقرأون بالليل ،وقراءة الليل « أشد وطأ » للقلب ، « وأقوم قيلاً » للحفظ . . . وهم « أهل الخوف والرجاء . . . ثم غايتهم النهائية ، فيما يقول أبو طالب المكى ، وسنعود إلى نصوصه هو فيما بعد فلما أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر ، أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر ، ولا نقر أعين هؤلاء المحبين إلا بوجهه ، كما يعملوا إلا لوجه الله تعالى[2] » .

واستفاضت الأحاديث أيضاً عن قيام الليل . ومن أهمها « عليكم بقيام الليل ؛ فإنه مرضاة لربكم ، ومكفر لسيئاتكم ، وهو دأب الصالحين قبلكم ، ومنهاة عن الإثم ، وملقاة للوزر ، ومذهبة لكيد الشيطان ، ومطردة للداء عن الجسد .

واستفاض عن العباد كأهل الروح قبل أبى سليمان الدارانى التغنى بالليل وتأمله . . . يقبل بظلامه عليهم فيتدرعوه ثم يخشون أن يسفر قبل أن يتلبسوه ويبكون عليه . . . وينتظرون نفحات الله فى إعطائه . . . ويطلبون من مريديهم أن يقيموه حتى يتعرضوا لنفحاته ، فإنه يصيب القلوب المتيقظة

(١) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ . (٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٥٧ .

ويخطئ القلوب النائمة . . . وكانوا يبكون حين وفاتهم ، حزناً على أن الموت سيسلبهم قيام الليل . . . وقد ذكرنا الكثير عن هذا من قبل فى ثنايا هذا الكتاب وقد ذكر أبو طالب المكى مجموعة كبيرة من العباد من التابعين اشتهروا بإحياء الليل كله ، وكان هؤلاء منتشرون فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . وكان على رأس هؤلاء أبو سليمان الدارانى [١] .

وكان أبو سليمان الدارانى أول من استخدم مصطلح « أهل الليل » ، فكان يقول « أهل الليل فى ليلهم ، ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ، ما أحببت البقاء فى الدنيا » . . . ويقول أيضاً « لو عوض الله عز وجل أهل الليل من ثواب أعمالهم ، ما يجدونه فى قلوبهم من اللذة ، لكان ذلك أكبر من أعمالهم » ونرى هنا أنه وضع مصطلح أهل الليل مقابلاً لأهل اللهو ، مع أن لهو هؤلاء الآخرين إنما كان بالليل أيضاً . ثم أخذ أبو سليمان الدارانى يذكر لمريديه « أهل الليل على ثلاث طبقات : منهم إذا قرأ متفكراً بكى ، ومنهم إذا تفكر صاح ، وراحته فى صياحه ، ومنهم من إذا قرأ وتفكر بهت ، ولم يصح » وطلب من أبى سليمان أن يفسر ، فقال : لا أقوى على التفسير . ولم يدرك سائله : أن الأمر أقوى من التفسير ، إنه يتكلم عن خطرات القلوب فى كل المراحل . . . ثم عاد يقول « من أحسن فى نهاره ، كوفئ فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوة ، ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له [٢] » . وأصبح مصطلح « أهل الليل » مستقرًّا لدى الصوفية ، فنى القرن الرابع الهجرى وفى هدى تقسيم أبى سليمان الدارانى ، يقسم الصوفية « أهل الليل » إلى ثلاثة أصناف :

١ – جماعة يقطعهم الليل ، فكان هؤلاء المريدون الذين يقرأون الأوراد والأحزاب كابدوا الليل ، فغلبهم .

٢ – جماعة قطعوا الليل ، وهؤلاء هم العالمون ، قطعوا الليل ، بالصبر والمصابرة ، فغلبوه .

٣ – وجماعة « قطع الليل » بهم . . . أى يمر الليل بهم مر السحاب يمضى سراعاً ، وهم فى اليقظة الكاملة ، لم يعودوا يعرفون النوم بعد « هؤلاء المحبون أهل الفكر والمحادثة ، وأهل الأنس والمجالسة . . . وأهل الذكر والمناجاة ، وأهل التملق والمناجاة » ينقص الليل عليهم كل حال يرد عليهم ، وعاشوا فى النعيم ، وهم ينتظرون فى الليل ولكن الليل يمضى سراعاً » و « رفع الحبيب عنهم نومهم » إنه هناك دائماً وهم إليه شاخصون ، فى مناجاة دائمة . . . إن أنوار المعرفة خففت عليهم قيامهم . وقد فاض الوصال ، فأرادوا المزيد ، أو لم يعد مزيد [٣] .

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٨١ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٢٠٤ .

(٣) أبو طالب : قوت القلوب ج ١ ص ٧٦ .

(ب) الجوع .

وأتى أبو سليمان الدارانى من العراق . وقد عرفت مدارس العراق الجوع ، وعاناه بلاشك سليمان الدارانى هناك ، ولكن للجوع أهمية كبرى فى مدرسة الشام .

وقد وسم عباد الشام – كما رأينا بالجوعية – وقد كان عليه ، وقد أصبح شيخهم أن يدلى بدلوه . . . فقال « مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع وأصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، الخوف من الله ، وأن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، وإن الجوع عنده فى خزائن مدخرة ، ولا يعطى إلا من أحب خاصة ، ولأن أدع من عشائى لقمة ، أحب إلى من أن آكلها ، وأقوم من الليل إلى آخره[1] . . . . بل إنه يدعو تلميذه الزاهد الكبير أحمد بن أبى الحوارى إلى أن « يدع الخبز أبداً ، وهو يشتهيه ، « فهو أحرى أن تعود إليه » ثم يحاول أن يهون عليهم الجوع فيقول « جوع قليل وسهر قليل وبرد قليل ، يقطع عنك الدنيا[2] . . . ويحس أن الجوع قاس على العابد الزاهد فيقول « ربما سمعت الرجل يقول : فؤادى يلسعنى من الجوع ، ولولا أنى أخاف أن أضعف عن أداء الفرائض ، ما أكلت شيئاً » ولكن الجديد فى دعوة أبى سليمان للجوع أنه يربطه بالقلب ، فالقلب إذا جاع وعطش ، صفا ورق ، وإذا شبع وروى ، عمى وبار . . .[3] .

(حـ) المعرفة :

وقد أراد أبو سليمان الدارانى أن يجلى صدأ القلب ، فربط الجوع به إذا جاع القلب والعطش ، صفا ورق . ويقول « استجلب الزهد بقصر الأمل ، وادفع أسباب الطمع بالإياس والقنوع . . . » وكل هذا لكى « يخلص إلى راحة القلب بصحة التفويض . . بل إنه يرى أن طريق الصوفى الحقيقى هو أن يرد « سبيل العجب بمعرفة النفس ، ويخلص إلى إجاع القلب بقلة الخطأ ، ويتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف » ويستجلب نور القلب بدوام الحزن ، ويلتمس باب الحزن بدوام الفكرة ، ويلتمس وجوه الفكرة فى الخلوات[4] . . . ولن يصل الزاهد العابد إلى الأنوار المفاضة على القلب إلا إذا خلى قلبه من كل السوى ، فلا يشغله غير الله « اختلفوا علينا فى الزهد فى العراق فمنهم من قال :

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٤ ٪ ٣٦٦ وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٦٦ .

الزهد فى ترك لقاء الناس أو منهم من قال فى ترك الشبع . . . وأنا أذهب إلى أن الزهد فى ترك ما يشغلك عن الله[١] .

« وإذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحلت الآخرة منه » والحجاب لا يأتى إلا من قلب تعلق بالشهوات أى تعلق بغير الله . . . ولذلك كان يكثر من التكلم عن أهل البصائر . . .[٢] . ونور الله والقلب العامر » وأخيراً قال أبو سليمان الدارانى « لوشك الناس كلهم فى الحق ، ما شككت فيه وحدى » وكل قلب فيه شك ، فهو ساقط »[٣] . . . وأخيراً . . . يرى تصفية القلب إلى أن يخلى العبد قلبه من الدنيا والآخرة . . . وقد سبقته رابعة العدوية إلى هذا من قبل كما رأينا ، ولعل لها بعض التأثير عليه ، وهو يقول « أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبك ، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره[٤] .

فإذا خرجت الدنيا والآخرة من القلب وجد العابد الحكمة فيه[٥] . فما هى الحكمة التى أكثر أبوسليمان الدارانى من ذكرها . وما طريقها : يقول « ربما أقمت فى الآية الواحدة خمس ليال ، ولولا أنى بعد أدع الفكرة فيها ، ما جزتها أبداً ، وربما جاءت الآية من القرآن – تطير العقل ، فسبحان الذى رده إليهم بعد » ومن الواضح أن أبا سليمان الدارانى يضع هنا طريق الاستنباط عند الصوفية وقد سمى أولاً طريق الفهم . وطريقة الاستنباط الصوفية هى تكرار الآية الواحدة تكراراً دائماً حتى ينقدح المعنى فى قلب الصوفى . وهنا يتلقى النفحات الإلهية ، أو النفحات اللدنية ، ولقد عبر أبو سليمان عن هذا حين قال « كنت بالعراق أعمل ، وبالشام أعرف » فأنوار المعرفة وضحت له العراق . بل إنه يضع هذا فى مقامين : مقام العاملين ومقام العارفين أما المقام الأول : فهو مقام من شغل بنفسه عن الاشتغال بالناس ، وأما المقام الثانى : فهو مقام من شغل بالله عن نفسه[٦] وفى هذا المقام يقول أبو سليمان الدارانى « إذا لاحظت الأشياء كلها من فوق ، وجدت لها طعماً آخر[٧] . ويقول أبو سليمان الدارانى « أهل المعرفة دعاؤهم غير دعاء الناس ، وهمتهم غير همة الناس ، وإرادتهم من الآخرة غير إرادة الناس . وقال رجل طوبى للزاهدين ، فقال أبو سليمان : طوبى للعارفين[٨] . والمعرفة معرفة مباشرة ينالها العبد من الله وبالله[٩] .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٨ .
(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٠ / ٢٦٢ .
(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٥٩ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .
(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٨ .
(٦) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٥٤٨ .
(٧) نفس المصدر : ج ٢ ص ٧١ .
(٨) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ – ٢٦٥ .
(٩) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٧٢ .

**( د ) المقامات :**

وإذا صحت المعرفة ، انتقل السالك فى المقامات : وقد حددها بثلاث : الزهد والورع والرضا . وكان يقول إنها ثلاث مقامات لا حد لها « ويذكر صاحب القوت : إن ابنه سليمان – وكان عارفاً ، وكان كثير من الصوفية يقدمونه على أبيه كان يرى أن لهذه المقامات حدوداً . إن من تورع فى كل شيء ، فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد فى كل شيء ، فقد بلغ حد الزهد ، ومن رضى عن الله فى كل شيء ، فقد بلغ حد الرضا [١] . ولكن مالبث أبو سليمان الدارانى أن وضع لكل مقام من المقامات حدًّا . . . ولم تعد المقامات عنده ثلاث ، بل كثرت . ولم يكن المصطلح بعد استقرار ، لا مصطلح المقامات ، ولا عددها ، . . فهو يستخدم أحياناً كلمة المقام وأحياناً يستخدم كلمة الدرج . أقول . . . ذهب إلى أن لكل مقام غاية أو حدًّا . . . « وإذا بلغ العبد غاية من الزهد ، أخرجه ذلك إلى التوكل » وها هو هنا يتوصل لمقام التوكل وإن كان يقول إنه عسير إليه ، فيخبر تلميذه أحمد بن أبى الحوارى « ما من شيء من درج العابدين إلا ثبت ، إلا هذا التوكل المبارك ، فإنى لا أعرفه ، إلا كسام الريح ، ليس يثبت [٢] . فهل هو حقًّا لم يعرفه ، أم أنه يعلم تلميذه أن التوكل ، أو مقام التوكل ، محفوف بالأشواك ودونه الصعاب . . . ويضيف مقاماً رابعاً هو القناعة فيقول « القناعة أو الرضا ، والورع أول الزهد » [٣] ثم يأتى بعد مقام الحب ، وكم تكلم فيه أبو سليمان كثيراً .

وسنلقى نظرة عامة على هذه المقامات . . . مع تقريرنا للمرة الثانية أن أبا سليمان الدارانى لم يقم بصياغتها صياغة منهجية ، كما نرى هذا فيما بعد لدى الصوفية فى أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع . . . كما لا نرى لديه أيضاً تمييزاً من المقامات والأحوال . . . حقًّا إنه يتكلم عن أنوار القلب والأنوار التى ترد إليه . . . ولكنه لم يوضح المسائل ولم يميز مختلف المعانى الصوفية .

أما مقام الزهد – فكان أهم المقامات عنده ، وقد شغل به أثناء مجاهدته بالعراق . ثم بالشام ، وأول الزهد « الورع »[٤] وسيصبح الورع مقاماً آخر لدى الصوفية . ويستجلب الزهد « بقصر الأمل » وأن يدفع أسباب الحياة باليأس والقنوع[٥] . وليس الزهد عنده بقطع الأسباب وانتظار ما يسميه « قرع الباب » يدخل الناس عليه بطعامه وثيابه . . . « لا خير فى عبد لزم القعود فى البيت ، وقلبه

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ٨٧ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٦ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ٢٧٤ .
(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٦ .

معلق بقرع الباب متى يطرق بسبب » وقد اختلف الصوفية من بعده فى ترك الأسباب ، وربطوا ترك الأسباب لا بالزهد فقط بل « بمقام التوكل » . . . ويرون أن من صح له مقام فى التوكل استوى عنده وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكناً مطمئناً عند العدم ، لم يشغله ذلك عن الله تعالى ، ولم يتفرق همه ، فترك التكسب والقعود لهذا أفضل ، لشغله بحاله . ولكن أبو سليمان الدارانى يقرر أنه فى كل المقامات لى قدم إلا هذا التوكل المبارك ، فما لى منه إلا مسام الريح [١] . . . ويقرر أنه لو توكل الزهاد مابنوا الحائط ولا جعلوا لباب الدار قفلاً [٢] . إذن فالأفضل لديه أن يقف عند مقام الزهد ، حيث لا يندم الزاهد الدنيا ولا يمدها ولا ينظر إليها ولا يمدحها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت [٣] .

وانتقل إلى عرض مقام الرضا عنده . وقد اقتن فيه أبوسليمان الدارانى ، والرضا رضاءان — رضاء الله على السالك ، ورضاء السالك على الله . . . وأهم أركان الرضا الإيمان بالجبر المطلق « ولذلك كثيراً ما هاجم أبو سليمان الدارانى القدرية . . . نحن فى جبر الله ، ولا عمل من أعمالنا يرضى الله أو يسخطه ، « ليس أعمال الخلق بالذى يسخطه ولا بالذى يرضيه ، وإنما رضى عن قوم ، فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل السخط »[٤] إنه إذن نوع من الاصطفاء ، ولا خيرة ، ونحن فى جبره المطلق فلا إرادة لمخلوق ، ولا جزاء على عمل « قد أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، وقد كان عمر بن الخطاب يحمل الطعام إلى الأصنام ، والله تعالى يحبه ، ماضره ذلك عند الله طرفة عين[٥] عجباً ، وهل تبين لأبى سليمان الدارانى ما يؤدى إليه سياق كلامه . . . كيف يصل من يصل وكيف يعود ، من يعود ، وهو الذى يقول « إذا وصلوا إليه لم يرحلوا إليه أبداً . . . إنما يرجع من رجع من الطريق »[٦] لا . . . إنه يتردد ثم يجزم بأن العمل لا يوصل أبداً إلى رضاء الله « كيف يعجب عاقل بعمله . . . وإنما يعد العمل نعمة من الله ، إنما ينبغى له أن يشكر ويتواضع ، وإنما يعجب بعمله القدرية الذين يزعمون أنهم يعملون فأما من زعم أنه مستعمل فبأى شىء يعجب[٧] . . . إذن فى هذا المقام مقام الرضا . . . ينعدم العمل ، إنما هو قدر

---

(١) أبو طالب : قوت القلوب ج ٢ ص ٣١ والسراج : اللمع ص ٧٩ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٦ .
(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٧٤ .
(٤) السراج : اللمع ص ٨١ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٧ .
(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٦١ .
(٧) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٣ .

أزلى سابق من الله باختياره هو « لأهل الرضا » واصطفائه لهم ، رضى عنهم ، فاصطفاهم ، عباد أصنام وأوثان أو نصارى أو يهود . . . وقد عبر صاحب اللمع عن موقف أبى سليمان هذا بقوله « ومنهم — من جاوز هذا وذهب عن رؤية مرضاة الله عنه ، ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى خلقه من الرضا [١] » .

ولكن الرضا لا يتم برضاء الله فقط عن العبد بل لابد من رضاء العبد عن الله « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وقد عبر الصوفية عن الرضا بأنه هو كون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله [٢] . أما أبو سليمان الدارانى فقد عبر عنه بأنه الرضاء بالله بدلاً دون خلقه وإيثاره على الشهوات كلها [٣] . بل إنه يعرفه بوضوح بأنه السلو عن الشهوات . [٤] وكان أبو سليمان الدارانى — هذا الشيخ ذو البهاء الروحى الكبير — ساكن القلب تحت حكم الله ، وبلغ رضاه غايته ، وهو يقول لتلميذه أحمد بن أبى الحوارى « أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقاً . لو أدخلنى النار ، لكنت بذلك راضياً [٥] . بل إن الرضا « أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار [٦] » .

وفى هذا المقام أطلق « لو اجتمع الناس على أن يضعونى ، كاتضاعى عند نفسى ، لما قدروا عليه لقد رضى بالله ، فلم يعد ير لنفسه شيئاً ، ومن رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدمة ، ولا طعم الرضا [٧] . « وعلموا النفس الرضا بمجارى المقدر . فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة [٨] . بلغ إذن أبو سليمان الدارانى غاية الرضا ، حيث لا يطلب جنة ولا ناراً ، ساكناً عتيداً ، يتطلب « الوجه الإلهى ، غارقاً فى الحب .

### (هـ) مقام الحب :

وكانت نغمات الحب تتردد فى أرجاء العالم الإسلامى ، فى مختلف مدارسه . وقد رأيناكيف تغنى بها أصحاب « الخلة » فى مدرسة البصرة ، ونطق بها عباد الكوفة ، ثم نراها فى مدرسة الموصل . . .

---

(١) السراج : اللمع . ص ٨١ .
(٢) نفس المصدر : ص ٨ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٥٥ .
(٤) السمى : طبقات ص ٧٩ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٦٣ ، ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠١ ، والقشيرى : الرسالة ٤٢٦ .
(٦) القشيرى : الرسالة ص ٤٢٥ .
(٧) نفس المصدر : ص ٣٤٠ .
(٨) السلمى : طبقات . . ص ٨١ .

ولكنها تأخذ أركانها الكبرى فى مدرسة الشام ، وعلى يد أبى سليمان الدارانى ، كما نجدها فى صورة مجلوة لدى تلميذته رابعة بنت إسماعيل وزوجها أحمد بن أبى الحوارى .

كان لابد أن يسلم « مقام الرضا » أبا سليمان الدارانى إلى مقام الحب . ومقام الحب نهاية العارفين والعابدين وفى هذا المقام . . . « يلبسنى الله فى البرد فيحا من محبته . . . وفى الصيف مذاق برد محبته[١] وفى هذا المقام « لادنيا ولا آخرة ، ولا ثواب ولا جزاء . . . ولا حور . . . ويطلع الله أنك لا تريد من الدنيا والآخرة . . . إلا هو[٢] وحيث لا يخطر بقلبك ذكر الخلق[٣] . وتسمعوا ليلاً على أبى سليمان الدارانى . . . وكان هو هناك مخلوع العذار يصرخ فى الله « يارب : إن طالبتنى بسريرتك ، طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتنى بذنوبى ، طالبتك بكرمك ، وإن جعلتنى من أهل النار ، أخبرت أهل النار بحبى إياك[٤] . . . وفى هذا من الدلال مافيه . . .

وأخيراً . . . وقد أفعمه الدلال . . . وأخذ يبكى فسأله تلميذه « مايبكيك فقال لى : يا أحمد ، ولم لا أبكى ، وإذا جن الليل ، ونامت العيون وهدأت النفوس . وخلا كل حبيب بحبيبه واستنارت قلوب العارفين ، وتلذذت بذكر ربهم ، وارتفعت هممهم إلى ذى العرش ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وقطرت فى محاريبهم خوفاً واشتياقاً ، أشرف الخليل سبحانه فأمدهم محابة وسروراً . فقال لهم أحبابى والعارفين بى ، اشتغلوا بى ، وألقوا عن قلوبهم ذكروا بى ، أبشروا فإن لكم عندى الكرامة والقربة يوم تلقونى ، فنادى الله جبريل عليه السلام : بعينى من تلذذ بكلامى . واستراح إلى ، وأناخ بفنائى ، وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم ، أسمع أنينهم وبكاءهم ، وأرى تقبلهم واجتهادهم ، فيهم يا جبريل ما هذا البكاء الذى أسمع ، وما هذا التضرع الذى أرى منهم هل سمعتم أو أخبركم أحد أن حبيباً يعذب أحباءه ، أو ما علمتم أنى كريم ، فكيف لا أرضى . أيشبه كرمى أن أرد قوماً قصدونى ، أم أذل قوماً تعززوا بى ، أم كيف أحجب غداً أقواماً آثرونى على جميع خلقى ، وعلى أنفسهم أو تنعموا بذكرى . أم كيف يشبه رحمتى ، أو كيف يمكن أن أبيت قوماً تملقوا لى وقوفاً على أقدامهم ، وعند البيات أخزوهم ، أم كيف يجمل لى أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقونى ، وكيفما كانوا ، انقطعوا إلى ، واستراحوا إلى ذكرى ، وخافوا عذابى ، وطلبوا القربة عندى ، فبى حلفت ، لأرفعن الوحشة عن قلوبهم ، ولأكونن أنيسهم إلى أن يلقونى ، فإذا قدموا على يوم القيامة ،

---

(١) القشيرى : الرسالة ص ٧٠٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفوة ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٣) السلمى : طبقات ج ٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٥ .

فإن أول هديتى إليهم أن أكشف لهم عن وجهى ، حتى ينظروا إلى ، وأنظر إليهم ثم لهم عندى مالا يعلمه غيرى [١] .

هذا هو المقام الأخير عند أبى سليمان الدارانى – اختلط فيه « الحب » « بالخلة » وتأثر فيه بكلامها . ثم انتهى إلى أن غاية المحب هو « الرؤية السعيدة » ونلحظ هنا تماماً تأثره بأصحاب الخلة من البصرة ، وقد أثروا عليه أيضاً فى نظريته « الروحانية » وقد امتلأت أخباره بذكر تنعمه بالروح والريحان ومقابلة الحور العين ، بحيث يمكننا أن نقول : إن أبا سليمان الدارانى ومدرسته . كانوا امتداداً لما أسماهم الفقهاء والمحدثون « بزنادقة الزهاد فى البصرة . وأعتقد أن أبا سليمان الدارانى كان فى نظريته عن الحب تلميذاً لرابعة العدوية البصرية بل يستخدم عباراتها ، وسيؤثر هو بدوره فى رابعة الشامية ، رابعة بنت إسماعيل . كما نرى أيضاً مجموعة كبيرة من الإسرائيليات تدخل فى تراثه .

(و) الأحوال :

رأينا أبا سليمان الدارانى يتكلم عن المقامات . ويضع أسس بعضها . ولست – كما قلت – أقرر أنه وضح المقام ، ووضح الحال . وأعطانا مفهوم كل منها . إنه تكلم عن درج ، وأحياناً تظفر منه بكلمة « مقام » ولكنه لم يضع كل هذا فى صورته الفنية – كما عرفها صوفية القرن الثالث إلى حد ما ثم القرن الرابع فى صورة حاسمة . ولكنه كان لأبى سليمان الفضل فى أنه وضع الكثير من مفهومات هذا المقام ، التى ذكرنا البعض ، وحاولنا تركيبه ، وتركنا البعض الآخر ، لأن مالدينا من شذرات باقية لاتكفى لتوضيح آرائه توضيحاً متكاملاً . . . ومن الأمثلة على هذا مفهوم اليقين ، واليقين مقام كبير لدى الصوفية ، نظفر منه بعبارات من أمثال مقام الصدق فهو يقول « لكل شيء معدن ، ومعدن الصدق قلوب الزاهدين « ومقام المحاسبة »[٢] . . . وقد تظهر نصوص أخرى للباحثين تلقى الضوء على كل هذه المفهومات لديه . . . وهنا يأتى السؤال : هل ذكر الأحوال . . . بلاشك إنه ذكر مفهوماتها ، ولكنه لم يذكر فيما لدى من شذرات – مصطلح الحال . وإن كان فيما يرجح يعلم الفرق بين مفهوم كل من المقام ومن الحال . والمقام – كما هو معلوم – هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب الصوفية ، أى بما اكتسبه . أما الأحوال – فمعانى ترد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ، ويقرر أبو سليمان الدارانى علو المقام على الحال . ويسمى المقام « وطن » واليقين « خاطر » ونظفر منه هذا حين يقول « الإيمان

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٦ / ١٧ ، وابن الجوزى : صفوة ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ٨٠ – ٨٣ .

أفضل من اليقين ، لأن الإيمان وطنات ، واليقين خطرات[١] فالإيمان وطن باق أى « مقام » واليقين وارد أى « حال » يأتى ويذهب ، ويقوى ويضعف « إذا جاء الطلب ، ضعف اليقين[٢] .

ولما كانت الأحوال غير منتظمة اهتم أبو سليمان الدارانى بها واهتم بالقلب وهو الذى يتلقى هذه الخطرات أشد الاهتمام ، اهتم بتنقيته وتصفيته حتى يكون على استعداد لما يفجأه من الواردات . . . وإن الواردات تحل بالقلوب ، ولابد لكى ترد صافية ، أن يكون القلب صافياً . وفى الحقيقة كان أبوسليمان الدارانى طبيب القلوب . . . وقد دخل فى أعماق هذا القلب حين يقول « إذا صارت المعاملة إلى القلوب ، استراحت الجوارح » ويفسر صاحب اللمع هذا بقوله « إن كلام أبى سليمان الدارانى يحمل معنيين : أحدهما : أنه أراد بذلك : استراحت الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال : إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة ، والعوارض المذمومة التى تشغل قلبه عن ذكر الله — ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك : أن يتمكن من المجاهدة والأعمال والعبادات ، وتصبير وطنه ، حتى يستلذها بقلبه ؛ ويجد حلاوتها ، ويسقط عنه التعب ، ووجود الألم الذى كان يجد قبل ذلك[٣] . . . والأحوال ترد ليلاً ، وقد قلنا من قبل إن أبا سليمان الدارانى قد اهتم أشد الاهتمام بالليل ، واعتبر رواد الروح هم أهل الليل . ولذلك تفجأهم الأحوال فى عتمة الليل « رأيت الفوائد ترد فى ظلم الليل » هـ والتفسير الصوفى الذى وضع لمصطلح الفوائد — فيما بعد هى أنها « تحف الحق لأهل معاملته فى وقت الخدمة بزيادة الفهم للتنعم بها[٤] . والأحوال خاصية العارف « إن الله يفتح للعارف — وهو على فراشه ، ما لايفتح لغيره وهو قائم يصلى[٥] » .

وقد خاض أبو سليمان الدارانى فى مفهوم الأحوال وقدم لنا بعض الأقوال الفريدة سأذكر منها مثالين : أما الأول : فهو حال المراقبة ، والمراقبة هى علم العبد بإطلاع الله عليه ، ويقول أبو سليمان الدارانى « كيف يخفى عليه ما فى القلوب ، ولا يكون فى القلوب إلا ما يلقى فيها ، أفيخفى عليه ما هو منه[٦] . فالمراقبة إذن من ناحية حال إلهية ، إنه يطلع على الضمائر ، مراقباً للخواطر المذمومة التى تشغل قلب السالك عن ذكر الله . . . أما الجانب الثانى من هذا الحال — وهو الحال الإنسانى — أى من

---

(١) السراج : اللمع ص ٤٤٦ .
(٢) السلمى : طبقات ص ٨٠ — ٨٣ .
(٣) السراج : اللمع ص ٦٦ .
(٤) نفس المصدر : ص ٤١٥ .
(٥) القشيرى : الرسالة ص ٦٠٧ .
(٦) السراج : اللمع . ص ٨٢ .

راقب الحق بالحق – أى من راقب الله بالله فى فناء مادون الحق ، فلم يذكر الدارانى شيئاً عنه . والأمر لم يكن قد استقر بعد – فيما يخص « المصطلح » ونماذجه المختلفة . أما الحال الثانى الذى ذكره الدارانى – فهو حال الطمأنينة ، وهو حال قرآنى ، عبر الله عنه فى الآية المشهورة « يأيتها النفس المطمئنة » وهى سكون القلب إلى الله ، واثتناسها به ، ثم يعتبره الكشف « وقد قال أبو سليمان الدارانى : النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت » وقد شغل هذا القول الشبلى الصوفى البغدادى المشهور ، ففسره بقول « إذا عرفت النفس من يقوتها اطمأنت[1] .

* * *

وبعد : فهذا إجمال تركيبى للأفكار وللآراء التى ألقى بها أبو سليمان الدارانى فى مجرى الحياة الروحية الإسلامية . ولا شك أنه خطا بهذه الحياة خطوات كبيرة نحو تكوين المذهب الصوفى الكامل ، إنه نقل الحياة الروحية فى الشام من لمحات متناثرة فى « الجوع » وفى « التعبد » وفى « التقرأ » إلى حياة ضخمة مليئة بالأفكار الساطعة ، محاولاً أن يدرجها فى نسق مذهب . ويمكننا أن نقول : إنه وضع – نظرية الزهد – فى صورة متكاملة ، ثم خاض فيما سيعرف فيما بعد . بالتصوف . فتكلم فى مقاماته وأحواله ، ولم يحفظ لنا التاريخ الكثير من أقواله . . . . ولقد عرف كلمة الصوف ، وهو يقول « الصوف علم من أعلام الزهد »[2] ولكنه ينهى عن لبسه للشهرة[3] . ويذكر كلمة صوفى « فيقول : وما رأيت صوفيًا فيه خير إلا واحداً عبد الله بن مرزوق »[4] . . . فهل كانت الصوفية فى عهده – فرقة خاصة ، تتميز بأشياء معينة ، تبعدها إلى حد كبير عن الحياة الروحية الخالصة . أو بمعنى أدق كانوا مجموعة من الحكماء « الذين اشتغلوا بالكيمياء ، ولبسوا الصوف ، رياء . إن أبا سليمان الدارانى يتكلم كثيراً عن الثياب وأنواعها ، ثوب الله ، وثوب للنفس ، وثوب للناس . . . لقد شغلته مسألة الصوف ، وها هو ذا يقول : إنه لم يجد صوفيًا فيه خير إلا عبد الله بن مرزوق .

وأخيراً . . . اجتمع فى أبى سليمان الدارانى جميع ثقافات العباد السابقين ، من إسرائيليات وغير إسرائيليات ، ومن تراث الكوفة والبصرة . ولكن زاد على كل هذا بأقواله فى المعرفة . فهل كانت أقواله هذه نهاية لتطور الحياة الروحية من قبله ، أم أنه تأثر « بالغنوص » . وكان الغنوص يقرر أن المعرفة إنما تنقدح فى النفس أو فى القلب انقداحاً مباشراً . أو بمعنى أدق هل تأثر أبو سليمان الدارانى بالأفلاطونية

---

(١) السراج : اللمع ص ٩٨ .

(٢) القشيرى : الرسالة ص ٢٩٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٧٤ .

(٤) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٦٥ .

المحدثة وغنوصها أو بالمذاهب الثنوية الفارسية الغنوصية . أم أنه كان فى محيط إسلامى بحت يطور « فكرة العلم اللدنى » القرآنية ، ويسير فى نسقها الإسلامى . إن ما بقى من نصوص أبى سليمان الدارانى لا يدعم أبداً اتصاله بالغنوصية ، بينما يرجح أنه كان فى وسط إسلامى بحت ، وقد دعا هذا إلى أنه سلم من هجمات ابن تيمية ، عدو التصوف الفلسفى المشهور ، بل إنه كان يجل الدارانى أشد الإجلال ، ويمدحه فى كثير من كتبه ورسائله . ونأتى إلى نقطة أخيرة : وهى صلاته بالمسيحية أو بمعنى أضيق بالرهبان . وقد ذهب الدكتور كامل الشيبى إلى أن أبا سليمان الدارانى كان يتبع تقليداً مسيحيًّا واضحاً حين ربط بين الشبع واللذة الجنسية ، ولذلك نهى عن الشبع ، ودعا إلى الجوع . . .[1] ومما يرجح رأى الدكتور الشيبى أيضاً فى تأثر الدارانى بالمسيحية هو أنه دعا إلى العزوبة ، والتحلل من الولد . . . ولكننا إذا تعمقنا النصوص ، نرى أن أبا سليمان الدارانى قد ذكر الرهبان وقابل تلميذه البعض منهم . وكان أبو سليمان يعجب بمعيشتهم فى المفاوز والبرارى ، ويرى أنهم أوتوا جزاءهم فى هذه الحياة ، لذة العبادة وجمالها . ولكنهم سيحرمون منها فى الآخرة ، إنهم لم يصلوا إلى « جوهر الإسلام » ، ولم تصبهم آثار « المعرفة » . وذكر هذا لتلميذه أحمد بن أبى الحوارى . أما موقفه من الحياة الأسرية ، فقد تزوج الدارانى وكان ابنه « سليمان » من أكابر العباد ، وقد قلنا من قبل إن الكثيرين من الصوفية كانوا يفضلونه على أبيه حقًّا إنه قال : من تزوج أو كتب الحديث أوطلب معاشاً ، فقد ركن إلى الدنيا » ثم قرأ قول الله « إلا من أتى الله بقلب سليم » وقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى . . . » ولكن كان كل متصلاً عنده بالزهد فى الدنيا ، والدنيا كل مايشغلك عن الله ، والتفرغ له فقط أو تفرغ القلب من هموم الدنيا للآخرة . . . ولكنه مايلبث أن يرى أن فى هذا خروجاً على الطبيعة الإنسانية فيقول « الزهد فى كل شىء ، حتى يتزوج الرجل العجوز أو غير ذات الهيئة إيثاراً للزهد فى الدنيا[2] . ثم إن تلميذه أحمد بن أبى الحوارى تزوج مراراً ، ولم ينكر عليه .

وبعد : فقد كان لأبى سليمان الدارانى الأثر الكبير فى الصوفية من بعده : لقد رأينا الشبلى يفسر أقواله ، كما نرى الحارث المحاسبى الصوفى البغدادى المشهور يشغل به أشد الشغل ، فيفسر قول أبى سليمان « أقرب مايتقرب به إليه ، هو أن يطلع على قلبه ، وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره » فيقول الحارث المحاسبى معلقاً بأنه « دليل على أن أقرب مايتقرب به العبد إلى الله ، كل عمل عمله بالإخلاص لله ، والإشفاق عليه من عدوه ، وإن قل ذلك فهو المقبول ، إذا كان على حقيقة التقوى معمولاً » ثم يورد قول على بن أبى طالب « عمل صالح دائم مع التقوى ، وإن قل » ، ويرى المحاسبى

---

(١) الكتور الشيبى : الصلة . . . ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب : ج ١ ص ٥١١ .

أنه كيف يكون قليلاً ما يتقبله الله . يقول « وذلك أن المحب لله هو على الركن الأعظم من الإيمان الذى يمكن أن يستكمله العبد[١] . إذن فقد أدرك المحاسبى أن قول أبى سليمان الدارانى هو فى المحبة .

كما يفسر المحاسبى قول الدارانى « مارجع من وصل ، ولو وصلوا مارجعوا » ويرى المحاسبى أن قول الدارانى يحتمل أجوبة كثيرة . . . أولها : أن أبا سليمان الدارانى أراد أن يحرض المريدين لئلا يميلوا إلى الفتور ، ويحترزوا من الانقطاع ، ويجدوا فى الطلب والاتصال والقربة إلى الله ، وثانيها يحتمل أن يكون أراد عالياً – أى أراد فكرة صوفية سامية وهى : مارجع إلى الزلل من وصل إلى صافى العمل ، وثالثها مارجع إلى وحشة الفتور من تقحم فى المقامات السنية من الأمور وهى فكرة صوفية سامية أيضاً . . . ورابعها مارجع إلى ذل عبودية المخلوقين من وصل إلى طيب روح اليقين . . . وإذن وجد أبو سليمان الدارانى مفسراً له فى الحارث المحاسبى . . . يفسرها على مختلف الوجوه[٢] كما أنه يستشهد به فى مقام التوكل وصعوبته [٣] .

بل إننا نرى الإمام أحمد بن حنبل يشغل به ، فقد التقى أحمد بن حنبل بأحمد بن أبى الحوارى تلميذ أبى سليمان وراويه بمكة : وطلب ابن حنبل من ابن أبى الحوارى أن يحدثه بحكاية سمعها من أستاذه الدارانى : فقال له الحوارى : « سمعت أبا سليمان يقول : « إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً » ومن الواضح أن ابن أبى الحوارى يورد لابن حنبل حديث أستاذه فى العلم اللدنى ، للعلم الذى يلتقى فى النفوس وفى القلوب إلقاء ، إذا تخلصت من الشهوات والأوزار ، وصفت ، وعرجت عروجها إلى آفاق الملكوت . وكان ابن حنبل ينكر عادة هذا الطريق : طريق الحدس ، أو طريق الذوق . ولكنه حين استمع إلى حديث أبى سليمان . قام ثلاثا وجلس ثلاثا : وقال : ماسمعت فى الإسلام حكاية أعجب من هذه إلى . ثم ذكر حديثاً نبوياً يؤيد قول الدارانى « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم ثم قال لأحمد بن أبى الحوارى « صدقت يا أحمد ، وصدق شيخك [٤] » . ولاشك أن أبحاثاً أخرى فى التراث الصوفى بعد أبى سليمان الدارانى ستكشف لنا عن الكثير من آثاره وتناول آرائه لدى الصوفية اللاحقين ، غير أن آراء مدرسته نفسها قد عاشت بعده – فى تلميذين من أكبر تلامذته هما : أحمد بن أبى الحوارى وقاسم الجوعى .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٨٤ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٩٢ .
(٣) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٠٤ .
(٤) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٤ ، ١٥ .

## ٢- أحمد بن أبى الحوارى :

أما أحمد بن أبى الحوارى (توفى عام ٢٣٠ هـ). فقد نشأ فى أسرة زاهدة، يقول السلمى : وله أخ يقال له محمد بن أبى الحوارى ، يجرى مجراه فى الزهد والورع . وابنه عبدالله بن أحمد بن أبى الحوارى من الزهاد - وأبوه - أبو الحوارى ، كان من العارفين الورعين أيضاً ، فبيتهم بيت الزهد والورع[١] وقد صحب المشايخ الكبار - من محدثين وصوفية ، وكان من أعاظم هؤلاء مضاء بن عيسى ، وأحمد بن عاصم الأنطاكى ،كما أخذ الحديث أيضاً عن سفيان بن عيينة ومروان بن معاوية القرارى وبشر بن السرى ، وأبى عبد الله البناجى ، غير أن أعظم صحبته كانت لأبى سليمان الدارانى ، بحيث يعتبر راويه ومحدثه وامتداداً واضحاً له . ثم تزوج ابن أبى الحوارى برابعة بنت إسماعيل ، الصوفية الشامية المشهورة ، وتتلمذ الاثنان على الشيخ الكبير الدارانى ، وأخذا سوياً من معينه .

ويبدو أنه نشأ محدثاً ، ومما يثبت هذا العدد الكبير من المحدثين الذين قابلهم وأخذ عنهم . ويذكر المؤرخون أنه طلب العلم ثلاثين سنة ، فلما فرغ من التعليم ، جلس للناس لكى ينشر علمه ، وهنا فجأه « خاطر من قبل الحق » فحمل كتبه إلى شاطئ الفرات ، ففرقها وقال : يا علم لم أفعل هذا بك تهاوناً بك ولا استخفافاً بحقك ، ولكن كنت أطلبك لأقتدى بك إلى ربى ، فلما اهتديت بك إلى ربى ، استغنيت عنك » ، ثم جلس يبكى ساعة ثم قال : نعم الدليل كنت لى على ربى ، ولكن لما ظفرت بالمدلول ، كان الاشتغال بالدليل محال[٢] » . . . وقد عبر أجمل تعبير دليل عن نظرته فى العلم بقوله «لا دليل على الله سواه، وإنما يطلب العلم لآداب الخدمة» وبهذا عبر أحمد بن أبى الحوارى عن « طريق الصوفى » فى دقة متناهية ، لابد أن يبدأ الصوفى بالعلم - من حديث وسنة ، وفقه ، ومعرفتهم دراية ورواية ، وهذه العلوم هى الدليل على الله ، وفيها ترويض لنفس الإنسان على معرفة آداب الخدمة ، الوقوف عند الحدود - فى الحضرة الإلهية ، ولكن حين تتوالى الخواطر ، ويصبح الخطاب مباشراً من الله ، حين يظفر « الزاهد » بالمدلول ، بالجوهر الإلهى ، حيًّا دائماً فى قلبه لم يعد فى حاجة للأدلة ، اختفى الدليل وبقى المدلول ، وذهبت العواصف بالآثار ، وبقى المؤثر « ولم يعد دليل على الله سواه » ، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال . ولا عجب بعد ذلك أن يقول الجنيد سيد الطائفة فى بغداد « أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشام » ويقول يحيى بن معين - وقد ذكر اسم أحمد بن الحوارى إمامه « أظن أهل الشام يسقيهم الله الغيث به » ويذكر محمود بن خالد « ما أظن بقى على وجه الأرض مثله[٣] » .

---

(١) السلمى : طبقات ص ٩٩ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٧٦ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢١٢ .

ولقد أخفت شهرة أستاذه الدارانى وطول ملازمة أحمد بن أبى الحوارى له ، آراء هذا الأخير ، وفى الحق أنه كان امتداداً له ، وقد أعطى أحمد بن أبى الحوارى صورة جميلة لعلاقة المريد بشيخه ، كان يعرض عليه كل دقائق حياته . . . المادية منها والروحية ، وأخبار رحلاته ، ومقابلاته للرهبان — ويقوم الشيخ بقيادته الروحية أحسن قيادة .

وقد يقال : إنه كان للرهبنة المسيحية أثر فى حياته ، وبخاصة أن مقابلاته لهم كانت متعددة ، وهو يذكر نفسه أنه قابلهم . ومن الأمثلة على هذا مقابلته لراهب فى دير حرمله ، اسمه جريج ، أشرف عليه من الدير ، فسأله أحمد بن أبى الحوارى : ما يحبسك فى هذه الصومعة ، فرد عليه الراهب : حبست فيها عن شهوات الدنيا . فقال أحمد بن أبى الحوارى : أما كان يستقيم أن تذهب معنا ههنا فى الأرض وتجيء وتمنع نفسك الشهوات ، فرد الراهب : هيهات — هذا الذى تصف أنت قوة ، وأنا فى ضعف ، فحلت بين نفسى وبينها . فسأله ابن الحوارى : ولم تفعل ذلك . قال الراهب : نجد فى كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه خلق من ملكوت السماء ، فإذا أجاع بدنه وأعراه ، وأسهره ، نازع الروح إلى الموضوع الذى خرج منه ، وإذا أطعمه وسقاه ونومه وأراحه ، أخلد البدن إلى الموضع الذى خرج منه ، فلم يكن شيء أحب إليه من الدنيا . . . ويجيب أحمد بن أبى الحوارى : فإذا فعل هذا ، تعجل له فى الدنيا الثواب[1] » . . . ويفسر هذا قول أبى سليمان الدارانى « ما قووا على ما هم فيه من المفاوز والبرارى إلا بشيء يجدونه فى قلوبهم ، لأنه قد تعجل لهثوابهم فى الدنيا ، لأنه ليس لهم فى الآخرة ثواب[2] » . إنهم يجدون لذة العبادة ، وامتلأت قلوبهم بحب الملكوت ، ولكن لاملكوت لهم فى السماء ، إنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ . وتلك الرسالة — عند صوفية الإسلام هى المحك الحقيقى لأنوار الحقيقة ، وللثواب الأبدى فى ملكوت السماء .

حقًّا : إن أحمد بن أبى الحوارى ذكر الكثير من الإسرائيليات ، كما ذكرها غيره من الزهاد ، وكانوا يترددون على الرهبان ، ويتردد عليهم الرهبان . . . وسيدعى أحمد بن أبى الحوارى « بالطبيب الراهب » ولكن لم يكن معنى هذا إطلاقاً أن الزهاد المسلمين كانوا صورة من رهبان المسيحيين . لقد آمن الزهاد المسلمون أن بين طريقتهم وطريقة الرهبان بوناً شاسعاً ، سواء فى طريق السلوك ، أو فى غاية التصوف . وإذا ما نظرنا إلى حياة أحمد بن أبى الحوارى الأسرية ، فإننا نجد أنها تختلف أشد الاختلاف عن حياة الرهبان ، لقد تزوج ، بل تزوج أربعة من النساء ، وكانت آخرهن رابعة بنت إسماعيل . وتتلمذ الاثنان على يد أبى سليمان الدارانى ، وفى حلقته تغنى الاثنان بالحب الإلهى . وكثيراً

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٥ .

(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٧١ .

ما كان يذكر لشيخه أنه قضى الليل فى صحبة نسائه ، ولم ينكر عليه الشيخ ، سوى إغراقه فى مجالسة النساء . ولم يمنع هذا إطلاقاً من أن يكون أحمد بن أبى الحوارى « ريحانة » عباد الشام وسيدهم بعد وفاة شيخه .

وأخيرًا . . . ماذا كانت آراء أحمد بن أبى الحوارى الزهدية . هل ردد آراء أستاذه فقط وغيره ، وقد كان راوية لكثير من الصوفية » . أما أنه تجاوز آراءهم متجهاً نحو أعماق التصوف ، فى خطى أكثر من أستاذه ، لقد كان عمل أحمد بن أبى الحوارى الأكبر أنه نقل إلينا آراء الزهاد المتعددين فى عصره ، نقل عن أستاذه أبى سليمان الدارانى – كما قلت – كما قدم لنا لمحات مضاء بن عيسى الزاهد الشامى المشهور فى الزهد ، كما فعل هذا عن العباد الآتية أسماؤهم : عتبة بن أبى السائب ، وبشر بن السرى وإسحق بن خلف وعبد الله الحذاء وعبد العزيز بن عبد عمير وأحمد الموصلى ووكيع بن الجراح وأسماء الرملية .كان أحمد بن أبى الحوارى ينقل كلامهم . ولكن لاشك أنه ترك هو نفسه أقوالاً تعبر عن آرائه .

تكلم أحمد بن أبى الحوارى فى طريق الاستنباط القرآنى ، كما تكلم أستاذه ، وتكلم عن الحيرة ، وهو مقام سيعرف بعد عند الصوفية » مقام الهيمان . يقول « إنى لأقرأ القرآن ، فأنظر فى آية ، فيحار عقلى فيها . وأعجب من حفاظ القرآن ، كيف يهنيهم النوم ، ويسعهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا ، وهم يتلون كلام الرحمن . أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه ، وتلذذوا به ، واستحلوا المناجاة به ، لذهب عنهم النوم ، فرحا بما رزقوا ووفقوا [1] » . وهو توضيح يكاد يكون تحديداً لمنهج الاستنباط ، يحار العقل فى الآية ، ويطبقون عليها منهج التأمل الباطنى ، فترد عليهم المناجاة الإلهية وتتوالى عليهم النفحات : العلم اللدنى .

ولكى تصل إليه النفحات اللدنية ، فلا بد وأن يترك الدنيا « الدنيا مزبلة ومجمع الكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف ، والمحب لها لا يزايلها بحال [2] » . وهذا جوهر الطريق عنده . وهو نفسه شاعر بحقيقة الطريق ، وتسأله إحدى العابدات القرشيات عن طريق النجاة . فيقول « هيهات ، إن بيننا وبين طريق النجاة عقاباً ، وذلك العقاب لا يقطع إلا بالسير الحثيث ، وتصحيح المعاملة ، وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة » عجباً هل وضع فى هذا الزمن فكرة قطع العلائق ، وخرق العوائد . . . إن هذه العابدة ترد قائلة : « يا أحمد : سبحان من أمسك عليك جوارحك ، فلم تنقطع ، وحفظ عليك فؤادك ، فلم يتصدع [3] »

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٢ وأبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٢٢ .

(٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠٢ . (٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١١ .

ثم غشى عليها . ولم تدرك أبداً . . . أنها كانت فى حالة محو مطلقة ، أو فى حالة فناء كامل ، وكان هو « الشيخ العتيد » فى حالة صحو مطلق أو فى حالة فناء عن الفناء ، فى حالة بقاء كامل ، وهذا هو حال القطب فى هذا الطريق .

لا بد إذن للطريق ، لطريق الزهد من إخراج الدنيا كاملة من القلب ، حتى يسكن نور اليقين فيه[1] ولا بد أن تترك الدنيا عند إقبالها ، أما إذا حدثت النفس الإنسان بتركها عند إدبارها . . . فهو خدعة[2] . ولا بد لمن عرف الدنيا ، أن يزهد فيها ، ومن عرف الآخرة أن يرغب فيها ، ولكن فوق هذا وذاك ، لابد من معرفة الله ، فمن عرفه ، لم يأبه لا بالدنيا ولا بالآخرة ، إنما يكون فى الرضا . وإذا طلبوا رضاه يقظة ومناماً ، توالت عليهم إفاداته ، يقظة ومناماً[3] ، وأصبحت الحقائق فى أيديهم فى كل حين .

وفى مقام « الرضا » يعرف الإنسان نفسه ، وإلا فهو فى غرور ، « وما ابتلى الله عبداً بشىء أشد من الغفلة » من الغفلة عن حقيقة نفسه ويعقب الغفلة « القسوة » . . . وإذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين ، واصحب الزاهدين ، وأقلل مطعمك واجتنب مرادك ، وروض نفسك عن المكاره[4] فإذا عرف الإنسان نفسه ، عرف كل شىء فى الطريق .

وأخيراً . . . أخذ يعدد فى عظة لله مقامات العباد « انقطع إلى الله – وكن عابداً زاهداً صادقاً متوكلاً مستقيماً عارفاً ذاكراً مؤنساً مستحياً خائفاً ، راجياً راضياً » والرضا – عنده – كما عند شيخه من قبل درج العارفين الكبير – « وعلامة الرضا أن لا يختار شيئاً إلا ما اختاره له مولاه ، فإذا كان ذلك كذلك ، كان له من الله عوناً ، حتى يرده إلى طاعته ، والطاعة ظاهرة وباطنة فلا يكون العبد فى الطاعة ، والطاعة باب الرضا ، حتى يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب . . . ويرد المظالم فيما بينه وبين الناس ، وهذا هو درج التوبة ، ثم يجتهد فى العبادة ، يقضى الليالى الطوال فيها ، « فيتشعب له من الاجتهاد الزهد ويتشعب له من الزهد الصدق ، ثم يتشعب له من الصدق ، التوكل ، ثم يتشعب له من التوكل ، الاستقامة ، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة » ثم يتشعب له من المعرفة الذكر ، ثم يتشعب له من الذكر الحلاوة والتلذذ ، ثم بعد التلذذ الأنس ، ثم بعد الأنس بالله الحياء ، ثم بعد الحياء ، الخوف ، وعلامة الخوف الاستعداد ، والتحويل من هذه « الأحوال » وأحمد بن

---

(١) السلمى : طبقات ص ١٠٠ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٧ .
(٣) السلمى : طبقات ص ١٠١ .
(٤) نفس المصدر : ص ١٠٢ .

أبى الحوارى يسميها هنا أحوالاً ، لا يعنى أبداً أن يتحول من قلبه خوف عدم لقائه . إنه فى خوف دائم من عدم هذا اللقاء . إنه يتطلب الرؤية ، إنه فى درج أو مقام الحب [١] .

وهنا يتغنى أحمد بن أبى الحوارى بالحب الإلهى ، والحب من الله أولا « إذا أحب الله العبد أحبه ، ولا يستطيع العبد أن يحب الله ، حتى لا يكون الابتداء منه بالحب له ، وذلك حين عرف منه الاجتهاد فى مرضاته » فإذا أحب الله العبد ، بادله العبد المحبة ، بحب طاعة الله ، وبحب ذكره [٢] . والمحبون هم المقربون ، والمقربون اصطلاح قرآنى ، وإن كان أبى الحوارى يطلقه هنا على لسان عيسى [٣] . والموت طريق المحب إلى المحبوب . ولذلك لم يكره إبراهيم الموت . كيف يكره الخليل لقاء خليله [٤] . وقد عاش أحمد بن أبى الحوارى فى وسط يموج بالحب الإلهى . ولقد ذكرنا من قبل أقوال شيخه الدارانى فى المحبة ، كما تزوج أحمد بن أبى الحوارى صوفية الحب رابعة بنت إسماعيل ، كما كان على صلات وثيقة بأسماء الرملية . وقد كانت أسماء أيضاً من صوفيات المحبة الإلهية [٥] . وفى « درج الحب » ، ولم يكن يعرف مصطلح المقام بعد تغنى الجميع بالحب الإلهى .

من هذا نرى أن أحمد بن أبى الحوارى تعمق آراء أستاذه . إنه لم يخط خطوة أكبر منه ، ولكنه يتميز بملامحه الخاصة به . ولكننا لا نرى أى تطور فى المصطلح الصوفى ، إنه يستخدم نفس مصطلحات أستاذه ، بل إنه يستخدم كلمة الدرج فى مقابل المقام ، ولا يستخدم مصطلح الحال ، استخداماً مستقرًّا ، بل يخلط بينه وبين المقام .

### ٣ – قاسم بن عثمان الجوعى :

أما الشخصية الثانية التى تمثل مدرسة الشام عامة ، ومدرسة أبى سليمان الدارانى خاصة ، فهى شخصية قاسم بن عثمان الجوعى . وقد لقبه أحمد بن أبى الحوارى « بالجوعى الكبير[٦] » . ويبدو أن دخوله فى الطريق كان على يد عابد فى طريق الشام . فقد خرج القاسم بن عثمان إلى الحج ، وبينما هو يسير فى الليل ، إذ غلط فى الطريق . وسمع صيحة ، فإذا جماعة قد ضلوا الطريق أيضاً ، ووقفوا على رجل من المتعبدين المنتشرين فى الصحراء فى صومعته ، وكان يبكى . واستمع إليه قاسم يقول : « أترى بكائى نافعاً عندك ومنقذ رقبتى من حكمك . أتراك آخذاً من نفسى بحقك ، وموبخها على رؤوس الأشهاد بما ضيعت من أمرك . أوه لكشف سترك عنى . أوه لوقوفى بين يديك . يا سيداه . ولما سكت

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٨ .
(٢) أبو نعيم : حلية ١٠ ص ٧ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٨ .
(٤) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٠ .
(٥) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٣ .
(٦) ابن الجوزى : صفوة ج ٤ ص ٢١١ .

قال له بعض الناس : إنا غلطنا الطريق . فقال العابد : وأنا أيضاً غلطت الطريق . فمن لى ولكم بالاستقامة على وجهها . . . ثم نادى : يا دليل الأدلاء – دلنى ودلهم ، ولا تحيرنى وإياهم [١] » ، فكشف لنا عن الطريق . فسلكناها . . . وتركناه واقفاً فى صومعته . والقصة رمزية كما نرى – هى دعوة للقاسم . . . أنه غلط الطريق . . . ولا بد له من أن يعود إلى طريق الله – طريق العباد . . . فتبين له الدليل . فعاد من حجه إلى الشام ، وقد اتخذ العزم على ولوجه ، وبدأ الطريق « بالجوع » .

ويبدو أن قاسماً الجوعى ذهب بالجوع إلى أقصى مداه ، إنه اعتبر الدنيا « الشبع وأكل الشهوات » فلا بد إذن من أن يزهد العابد فى الجوف « الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف ، بقدر ما تملك من بطنك ، كذلك تملك من الزهد[٢] » و « الجوع مخ العبادة [٣] » . ويقول فى موضوع آخر ، حين سئل أيضاً عن الزهد ، فقال : « اعلم أن البطن دنيا العبد ، وبمقدار ما يملك من بطنه ، يملك من الزهد ، وبمقدار ما يملكه بطنه ، تملكه الدنيا [٤] » وهو نفسه يشرح لم سمى نفسه بالجوعى ، فيقول : « تركت ما تركت ، ولم أوت بالطعام لم أبال ، رضيت نفسى ، حتى لو تركت شهراً وما زاد ، فلم تأكل ولم تبال ، أنا عنها راض أسوقها حيث شئت ، فأنا أسجنها حيث شئت . اللهم أنت فعلت ذلك بى ، فأتمه على » . فأبو القاسم الجوعى ، لا يعتبر الجوع غاية فى ذاته ، وإنما هو طريق لترويض النفس ، يروضها كما تشاء . . . وبديل الشبع المادى . . . الشبع الروحى وهو المحبة » . شبع الأولياء بالمحبة عن الجوع ففقدوا لذاذة الطعام والشراب والشهوات ولذات الدنيا ، لأنهم تلذذوا بلذة ليس فوقها لذة ، فقطعتهم عن كل لذة . . . » .

فالقاسم الجوعى إذن يمزج كما يمزج أبو سليمان الدارانى الجوع بالمحبة ، ويخطو أيضاً خطوة نحو توضيح حقيقة المعرفة الصوفية ، وأصل المحبة المعرفة ، وأصل الطاعة التصديق ، وأصل الخوف المراقبة ، وأصل المعاصى طول الأمل ، وحب الرياسة أصل كل موبقة » وهو هنا يعتبر معرفة الله أصل كل حب . . . بل إن قليل العمل مع المعرفة عنده خير من كثير العمل بلا معرفة . وكان يقول : « تعرف وضع رأسك ، فما عبد الله بشىء أفضل من المعرفة » .

وأخيراً إن رأس الأعمال كلها الرضا عن الله ، والورع عماد الدين . . . والحصن الحصين ضبط اللسان . ومن شكر الله جلس فى ميدان الزيادة ، ومن حمده . . . عد المصائب نعماً وشكر الله على

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ٣٣١ .
(٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٥١١ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٣٢٣ .
(٤) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ٣٥٤ .

ذلك ، ولو زويت عنه الدنيا[١] .

وبعد : فإن قاسماً الجوعى يمثل مدرسة الشام أصدق تمثيل . . . كان جوهر دعوته الجوع ، وكذلك سمي به ، ولكن الجوع عنده كان قد تطور ، فاتصل بالزهد وبالمحبة ، ثم تناول الرجل « المعرفة والرضا » ، خاض فى كل هذه « الدرج » ولكن النصوص قليلة . ولم يكن أبو سليمان الدارانى وأحمد ابن أبى الحوارى وقاسم الجوعى ، هم وحدهم يحملون لواء الفكرة الجوعية وما يتصل بها من مقامات الزهاد وأحوالهم . بل إننا نرى مجموعة كبرى من العباد ولكن لم يبق لنا من تراثهم سوى القليل : فنرى فكرة الجوع أيضاً لدى مضاء بن عيسى الزاهد الشامى « إن ترك لقمة خير من قيام ليلة » ويتكلم عن المعرفة « الإلهام ويربطها بالخوف . فإذا خاف العابد الله ألهمه ، وعمل له ، لا يحتاج الإنسان إلى دليل « خف الله يلهمك ، واعمل له ، لا يلجئك إلى دليل » . وأخيراً يردد نفس تعبيرات أبى سليمان الدارانى : « عمل النهار يستخرجه الليل ، وعمل الليل يستخرجه النهار » وكذلك القول المنسوب إلى الدارانى « إذا وصلوا إليه ، لم يرجعوا عنه ، إنما رجع من رجع من الطريق » ثم أخيراً يقول « من رجا شيئاً طلبه » وهو يقصد الله « ومن خاف من شيء هرب منه » الدنيا ومن فيها « ومن أحب شيئاً ، آثره على غيره » ، وهو يقصد هنا أيضاً الله[٢] .

وكان هناك غير منصور بن عمر أبو كريمة العبدى وبشير الطبرى ، كما أتى أيضاً عباد آخرون من واسط ، ولعلهم تابعوا خطى الشيخ الكبير الدارانى – كأبى عباد الشامى . ثم نرى أيضاً عبارات سيذكرها بعض هؤلاء العباد ، فنسمع على بن الفتح الحلبى يقول فى يوم نحر « يارب أرى الناس يتقربون إليك بألوان الذبائح ، وإنى تقربت إليك بحزنى[٣] » ، وسيقول الحلاج فيما بعد فى يوم نحر أيضاً :

تهـــدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى

* * *

## ٤ – عباد بيت المقدس :

ثم إذا انتقلنا إلى الجنوب – وجدنا عباد بيت المقدس . ومن العجب أن نرى عباد بيت المقدس – فيما يذكر المؤرخون – يقومون بكرامات تشبه معجزات المسيح من إبراء المرضى ، كإدريس بن

---

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ١٠ ص ٣ ، وابن الجوزى : صفة ٤ ص ٢١١ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣٢٤ ،وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢١٥ .

أبى حولة [١] . كما أن الكثيرين منهم كانوا يتخفون ، فلا يعرفون .

وفى رحاب مدرسة الشام أيضاً ظهرت مدرسة على ثغورها ، وعلى جبال لبنان ، كما ظهرت فى البادية . . . حيث كان يذهب رجال الشام من الزهاد ، ورجال العراق أيضاً من الزهاد ، إلى الكعبة ، حيث يقومون بالحج . ولقد تكلمنا من قبل عن رحلات سفيان الثورى ومقابلاته مع شيبان الراعى [٢] . ومع أبى حبيب البدوى . ونرى نفس الشىء هنا ، ونرى الدارانى يبدو فى بعض مقابلاته مع هؤلاء ، آناً فى مقام الشيخ ، وآنا فى مقام المريد . . . فمرة كان يمر فى جبل اللكام فى جوف الليل ، فسمع رجلا يقول فى دعائه « يا سيدى وأملى ، ومؤملى ، ومن به تم عملى أعوذ بك من قلب لا يشتاق إليك ، وأعوذ بك من دعاء لا يصل إليك ، وأعوذ بك من عين لا تبكى عليك » ، فأدرك أبو سليمان أنه إمام « عارف » من العارفين المستترين : فقال له : يا فتى إن للعارفين مقامات وللمشتاقين علامات : فسأله العارف : ما هى : فأجاب الدارانى : كتمان المصيبات ، وصيانات الكرامات : وطلب العارف منه العظة . فقال الدارانى : اذهب ولا ترد غيره ، ولا ترد خيره ، ولا تبخل بشيئة عنه . . . اذهب فلا ترد الدنيا ، واتخذ الفقر غنى ، والبلاء من الله شفاء ، والتوكل معاشاً ، والجوع حرفة ، واتخذ الله لكل شدة عدة . . . » فصعق الشاب ، صعقة ، فتركه أبو سليمان ومضى .

ولكن نرى مواقف أخرى ، يبدو فيها أبو سليمان الدارانى فى مقام أدنى من مقامات هؤلاء العباد . فى طريقه إلى الحج أيضاً ، وكان معه تلميذه ابن أبى الحوارى . . . قابل رجلا عليه طمران رثان ، وكان الشيخ وتلميذه قد تدرعا بالفراء من شدة البرد ، بينما كان الرجل يرشح عرقاً ، فعطف عليه أبو سليمان الدارانى ، وسأله « ألا ندثرك ببعض ما معنا . فقال الرجل : يادارانى . الحر والبرد خلقان لله تعالى : إن أمرهما أن يغشيانى أصابانى ، وإن أمرهما أن يتركانى تركانى ، يادارانى تصف الزهد ، وتخاف من البرد ، وأنا شيخ لى فى هذه التربة منذ ثلاثين سنة ، ما انتفضت ولا ارتعدت ، يلبسنى فى البرد فيحاً من محبته ، ويلبسنى فى الصيف مذاق برد محبته » . . . ثم مضى وهو يقول « يادارانى تبكى وتصيح ، وتستريح إلى الترويح . . . » فكان أبو سليمان الدارانى يقول : لم يعرفنى غيره . . . [٣]

وبعد : فقد كانت البوادى والبرارى مجالاً لمقام هؤلاء الزهاد ، وقد كان الزهاد يرون فيهم الأبدال مستندين على حديث منسوب للنبى ﷺ ، شك فيه علماء السنة ، ومستندين أيضاً على حديث « رب أشعث أغبر . . . » أو هو حديث صحيح كان الزهاد يحاولون قدر استطاعتهم مقابلة هؤلاء الزهاد من

---

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٤ ٣٤٠ – ٣٤١ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٤٣ .

ساكنى البرارى ، وهم ينأون عن الناس ويحاولون الاختفاء بداريهم ويعيشون مع أغنامهم ، يرعون بها الصحراء .

### ٥ – عباد جبل لبنان :

ولكن كما قلت كانت هناك مدرسة تتكون – على جبال لبنان ، وعلى الثغور العليا ، أى عواصم الحدود بين البلاد العربية وبين الدولة الرومية ، وعلى الرباطات فى أعالى البحر . ولا بد أن الجبل والبحر والحدود المضطربة غير الآمنة قد استهوت عدداً غير قليل من هؤلاء العباد . . .

وتبدأ مدرسة لبنان عند أغلب مؤلفى الطبقات من الأقدمين بالإمام أبى عمرو الأوزاعى ( المتوفى عام ١٥١ هـ) وقد كان الأوزاعى فقيهاً بمعنى الكلمة ، وكان له مذهب يضارع – المذاهب الأربعة – ولكن لم يكتب لمذهبه الفقهى البقاء ، وقد أقيمت محاولات متعددة لعرض هذا المذهب الفقهى وتبين أصوله ، وكتبت مقالات متعددة فى تأثير القانون الرومانى فى فقهه أو عدم تأثيره . وقد عمل الأوزاعى للأمويين وأخلص لهم ، وكان هو الذى أفتى بقتل غيلان الدمشقى ، فى مذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، ثم حين أتى العباسيون – نأى عنهم – ونرى أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى يعاتبه أنه أبطأ عنهم [١] ، أى أنه لم يتصل بهم كما اتصل بالأمويين من قبل . وقد كان للأوزاعى صلات بسفيان الثورى[٢] . ونلاحظ أن كليهما فقيه ، وأن الثورى انتهى فعلاً إلى التزهد ، بل كان يتردد على رابعة العدوية وعلى طائفة الروحانيين فى البصرة ، ثم إنه قابل شيبان الراعى وأبى حبيب البدوى ، وكانت له بهما صلات ، فهل حدث أيضاً هذا للأوزاعى . لاتحدثنا النصوص التى بين أيدينا عن شىء من هذا .

كان الأوزاعى – كفقيه بل رأس مدرسة فى الفقه ورعاً ، ورع الفقهاء وكان واعظاً ، وعظ الفقهاء ، ونراه فى موعظته لأبى جعفر المنصور يتخذ لا طريق الفقهاء وحدهم ، بل أيضاً طريق المحدثين : فيقيم موعظته على أحاديث مسندة .

وكان الأوزاعى ، يمثل وجهة نظر أهل السنة فى الشام ، مع موالاة لوجهة النظر الأموية ولذلك كان يعلن : خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان ، لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد وتلاوة القرآن ، والجهاد فى سبيل الله »[٣] . . . والسنة عنده هى كل شىء « اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣١٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٤٢ .

سلفك الصالح . فإنه يسعك ما وسعهم ، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول ولا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنية موافقة السنة »[١] . . . والنص طويل وهام فى مجال الفرق والكلام . ولعل هذا ما جعله يقف موقفاً عنيفاً تجاه غيلان حين نادى بالحرية الإنسانية .

ولذلك أفضل أن أتجاوز عن الأوزاعى ، ونحن بصدد التكلم عن الحياة الروحية فى الإسلام ، تجاوزى عن بقية الأئمة العظماء الورعين من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل . كان لهؤلاء عملهم العظيم فى ميدان الفقه ولم تكن الحياة الروحية من عبادة وزهد – بالمعنى الفنى – من نطاق أعمالهم .

ولكن جبل لبنان كان يجذب إليه العباد ، يعيشون على قممه وفى كهوفه صيفاً وشتاء ، وكان الزهاد الكبار ، ثم الصوفية من بعدهم يحاولون مقابلة هؤلاء العباد والأخذ عنهم . . . وسنرى فى حياة ذى النون والسرى السقطى وغيرهما من الصوفية الكثير من هؤلاء العباد المجهولى الأسماء ، غير أن التاريخ ترك لنا أسماء البعض منهم .

ومن هؤلاء على الجرجانى . ويعتبره ابن الجوزى من أساتذة بشر بن الحارث المشهور بالحافى ، ومن كبار صوفية بغداد . وقد لقى بشر الحافى على عين ماء فى جبل لبنان ، فما رأى الجرجانى بشراً قال : بذنب منى لقيت اليوم إنسيا . ثم مضى فعدا بشر الحافى خلفه وقال له : أوصنى . فالتفت إليه وقال : أمستوص أنت ! عانق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعاد الهوى ، وعاف الشهوات . واجعل بيتك من لحدك ، يوم تنقل إليه ، على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل[٢] .

ومن الذين عرفوا أيضاً من عقلاء المجانين بجبل لبنان « شيبان المصاب » وكان يتغنى بالمحبة ، وقد قابله ذو النون المصرى على جبل لبنان وأخذ يعلم ذا النون عن هؤلاء الذين أنسهم الله بقربه . وأن من وصل منهم إلى هذا أعطاه الله أربع خصال : عزًّا من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وإنساً من غير جماعة . . . ثم غشى عليه ، فلما أفاق . . . قال :

إن ذكر الحبيب هيج شوقى ثم حب الحبيب أذهب عقلى

ويشرح حاله فيقول « وقد استوحشت من ملاقات المخلوقين وقد أنست بذكر رب العالمين » . ثم يشرح لذى النون المحبة « أحب مولاك ، ولا ترد بحبه بدلاً ، فالمحبون لله تعالى هم تيجان العباد وعلم الزهاد ، وهم أصفياء الله وأحباؤه[٤] .

---

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٤٤ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢١٤ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١١١ ، ١١٢ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣١٧ .

ثم يذكر لنا محمد بن المبارك الزاهد المشهور اسم عابد آخر كان يعيش فى جبل لبنان ، واسمه « عباس المجنون » . وقد ذهب إليه محمد بن المبارك ويصفه فيقول « إذا برجل عليه جبة صوف ، مفتقة الأكمام ، عليها مكتوب – لا تباع ولا تشترى – قد اتزر بمئزر الخشوع ، واتسع برداء القنوع ، وتعمم بعمامة التوكل » ولما رأى محمد بن المبارك اختفى وراء شجرة . وناشده ابن المبارك بالله أن يظهر . فأقبل عليه . فقال له : « إنكم معاشر العباد ، تصبرون على الوحدة ، وتقاسون فى هذه القفار الوحشية » فضحك ، ووضع كمه على رأسه وأخذ ينشد :

يا حبيب القلب من لى سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
أنت سؤلى وبغيتى وسرورى قد أبى القلب أن يحب سواكا
يا منائى وسيدى واعتمادى طال شوقى – متى يكون لقاكا
ليس سؤلى من الجنان نعيم غير أنى أريدها لأراكا

ثم غاب عنه ، وانتظره ابن المبارك عاماً كاملاً ، فلم يظهر . ويبدو أن أبا سليمان الدارانى كان على صلة به أيضاً . إن ابن المبارك يقص لنا أنه لقى غلام أبى سليمان الدارانى فسأله عن العباس ووصفه له . فقال : واشوقاه إلى نظرة أخرى منه . . . ذاك عباس المجنون ، يأكل فى شهر أكلتين من ثمار الشجر ، أو نبات الأرض . يتعبد منذ ستين عاماً [1] .

ولعل عباساً هذا يمثل لنا عباد جبل لبنان أكبر تمثيل ، كانوا هناك يلتحفون بالجبال ، ويقتاتون بفواكه الجبل أو بخضرواتها ويناون عن الناس . وكان يصطلمون بالحب الإلهى أو بالشوق إلى لقاء الله . وكانوا ينظرون إلى النعيم الأخروى كأنه معبر فقط لرؤية الله . وليس لنا ما يؤكد العلة فى خروجهم إلى التعبد فى جبال لبنان ، وجبال سوريا ، وجبال اللكام ، هل كان هذا نتيجة لذنوب ، أعقبتها توبة ، أم هى نوازع داخلية ، أصابتهم كما أصابت المتعبدين فى مختلف بقاع العالم الإسلامى . ثم ليس لدينا أيضاً المصادر الكافية التى تصور لنا حياتهم تصويراً كاملاً . ولكن تؤكد ما بين يدنا من مصادر ومعلومات أنهم لم يحبوا حياة جمعية ، كما أنهم لم يتأثروا بالرهبنة المسيحية ، وقد أخطأ المستشرقون الذين حاولوا رسم حياتهم وتصويرها على نمط هؤلاء الرهبان ، فليست هناك صلات تذكر ، وإن كانت وجدت ، لأفاض فيها المؤرخون القدامى من المسلمين والمسيحيين .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٤٥ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

# الفصل الثالث

## مدرسة الثغور

أفرد ابن الجوزى فى براعة نادرة مكاناً خاصًا فى كتابه صفوة الصفوة للمصطفين من أهل الثغور والعواصم . وكانت الثغور والعواصم تعنى تلك المدن القائمة على الحدود بين « دار الإسلام » و « دار العدو » أو الثغور الواقعة على البحر ويرابط فيها « مرابطة » من المجاهدين لصد هجمات العدو . وكانت الإسكندرية مكاناً للمرابطة لمدة طويلة من الزمن ، ثم استقرت أمورها . ولذلك سنخرجها من بحثنا هذا . ولكن أهم الثغور والعواصم التى تسترعى أنظار الباحث كانت ثغور الإقليم السورى ، سواء على شواطئ البحر ، أم فى شمالها حيث كانت « المرابطة » أمام العدو الرومانى البيزنطى .

وقد استن العباد من قبل ثم الزهاد من بعدهم ، بل الصوفية أنفسهم سنة « المرابطة » فكانوا يذهبون إلى هذه « الربط » لمجاهدة العدو ، وقد نشأت فى المغرب الأقصى فيما بعد – دولة كبرى – اتخذت « المرابطة » اسما لها ورسماً مع تصوف واضح ، وكان للمرابطين فى شمال أفريقيا وفى الأندلس دور هام فى تاريخ الإسلام فى تلك البلاد .

والاحظ أولاً أن عباد الثغور والعواصم كانوا إما فقهاء وإما محدثين – فى بادئ أمرهم – ثم دفعتهم « دفعة » من الزهد أو التصوف نحو المرابطة . ثم أرى ثانياً أيضاً أن الكثيرين منهم ، لم يكونوا أصلاً من أهل البلاد التى أقيمت فيها الثغور أو العواصم ، بل أتوا إليها من بلادهم الأصلية – كالبصرة أو الكوفة أو خراسان ، حقًا إن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط كان فعلاً من أهل الثغور ، ولكن العدد الأكبر منهم كانوا « مهاجرين » أتوا إلى الثغور إما للمشاركة فى الجهاد ، وللفوز بالاستشهاد ، وإما لتقوية عزائم المجاهدين وأخيراً – إن معنى الرباط ، والثغور تغير بمضى الأزمان فأصبح « الرباط » مجرد مأوى لمشايخ الصوفية وأتباعهم ، اللهم فى حالات معينة ، يقيمون فيه عباداتهم وشعائرهم ، وانتهى معنى الجهاد والاستشهاد فيه .

وقد لاحظت – أن هؤلاء العباد كانوا فقهاء وعلماء ومحدثين . ويتحقق هذا فى أحد الأوائل من تلك الطائفة ، وهو أبو إسحاق الفزارى ( المتوفى عام ١٨٨ هـ ) ، بحيث يقول عنه صاحب الحلية « كان لأهل الأثر والسنة إماماً [١] » ويقول عنه ابن الجوزى « صاحب سنة وغزو [٢] » . وقد دعته

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٥٣ .

(٢) وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٧٣٣ .

هذه السنة أنه كان يأخذ المال من السلطان والإخوان – أى يقبل الهدايا من الخليفة ومن إخوانه من المسلمين » فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه فى المستورين الذين لا يتحركون » أى ينفقه على العباد والزهاد ممن لا يتركون أماكن عبادتهم » والذى يأخذه من السلطان ، كان يخرجه إلى مستحقيه من أهل طرطوس[١] » أى ينفقه فى مستحق الصدقات من أهل الثغر الذى عاش فيه وهو طرطوس ولكن قبوله لهدايا الخلفاء لا يعنى أبداً أنه عاش فى رحابهم . لقد طلب منه هارون الرشيد أن يبقى لديه : وقال له : أيها الشيخ : إنك فى موضع القرب . فرفض وقال : إن ذاك لا يغنى عنى يوم القيامة من الله شيئاً[٢] » . ولذلك يصفه صاحب الحلية أيضاً بأنه : « تارك القصور والجوارى ، ونازل الثغور والبرارى[٣] » ولقد استقام – بعد طرطوس والمصيصة ، ووسم باسم الشامى « كان الأوزاعى والفزارى إمامين فى السنة ، فإذا رأيت الشامى يذكر الأوزاعى والفزارى ، فاطمئن إليه ، كان هؤلاء أئمة فى السنة[٤] » ولذلك أخذ عن الفزارى الأئمة الكبار من المحدثين والصوفية ، كسفيان الثورى والأوزاعى ومحمد بن يوسف الأصفهانى بل كان الأخير يذكر عنه أنه الصادق المصدوق . وكان العابد الخراسانى الكبير « الفضيل بن عياض » يتشوق لرؤيته ويقول « لربما اشتقت إلى المصيصة ، ما بى فضل الرباط ، إلا أرى أبا إسحق الفزارى » ولقد كان يرابط فى المصيصة ومعه فى الرباط إبراهيم بن أدهم الصوفى المشهور ، ولقد أبقت لنا المصادر بعض العبارات القليلة عنه فى الورع « إن من الناس من يحب الثناء عليه ، وما يساوى عند الله جناح بعوضة » ، والقول الآخر « من قال الحمد لله على كل حال ، فإن كانت نعمة ، كان لها كفاء وإن كانت مصيبة ، كان لها عزاء[٥] » .

أما الشخصيات التى يتضح فيها الهجرة من أماكن داخلية إلى الثغور فكثيرة منهم عيسى بن يوسف ابن إسحق السبيعى الهمدانى ( المتوفى عام ١٨٧ هـ ) « كان من الكوفة ، فتحول إلى الثغر ، فنزل الحدث » وكان من أهل « الورع » ولا يقبل مالا لا من الخليفة ولا من غيره عن روايته للحديث ، وقد ذكره ابن حنبل وأثنى على ورعه . وكان ابن حنبل يحب هذا النوع من المحدثين والفقهاء ، الذى يختلط نوع من الورع والزهد بفقههم وتحديثهم[٦] . ومن هذه الشخصيات على بن بكار ( المتوفى عام ١٩٩ ) . وقد كان على بن بكار فقيها بصريًا ، ولكنه سكن المصيصة مرابطاً ، صحبه إبراهيم بن أدهم

---

(١) القشيرى : الرسالة . . ج ٢ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣٣ .
(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٣٤ .
(٦) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٤٠ .

وأبا إسحق الفزارى ومخلد بن الحسين . وقد ذكره صاحب الحلية ، فقال : « المرابط الصبار ، المجاهد الكرار [١] » . ويتضح من هذا صدق ملاحظتى الأولى والثانية : وهى أن رجال الثغور كانوا فقهاء أولاً ، ولم يكونوا فى الأغلب من أهل أقاليم الثغور . كما نلاحظ أنه كان هناك روح عامة لدى زهاد العالم الإسلامى تدفعهم نحو المرابطة ، وأن إبراهيم بن أدهم ، وكما سنرى بعد حين نبحث فى حياته ، وقد صاغها المستشرقون صياغة فيها غلو وعدم صدق — على نسق حياة بوذا ، كانت حياته إسلامية بحتة ، وأنه رابط كما رابط غيره من الزهاد ، وأنه اتبع السنة ، كما اتبعها غيره من عباد المسلمين كان على بن بكار إذن فقيهاً وصاحب سنة ، ولم يمنعه فقهه وسنته من أن يصحب إبراهيم بن أدهم . ولو شك أبو إسحاق الفزارى — وكان أيضاً فقيهاً ، وعلى بن بكار فى سنية إبراهيم بن أدهم ، ولو تبين لها أنه كان يعيش فى ضوء تعاليم بوذا ، لما اصطحباه ، ولما رابطا معه .

كان على بن بكار — كما قلت — بصريًّا ، وكان فقيهاً . ثم ما لبث أن ترك البصرة ، كما ترك الفقه ، وخرج مع إبراهيم بن أدهم مرابطاً فى المصيصة ، وكان يبكى دائماً ، وتلك سنة أهل البصرة من العباد والزهاد . . . حتى عمى ، وكان أثر الدموع على خديه [٢] . وكان ينأى عن فراشه ، ويقضى الليل كله فى التعبد والتهجد .

وفى المصيصة ، عاش فى رباطها مع بقية أصحاب إبراهيم بن أدهم وبخاصة أبى إسحاق الفزارى ، وكانا يكتسبان عيشهما بالاحتطاب ، ثم يشاركان فى المغازى ، قد ذكرت المصادر بطولة على بن بكار فى القتال [٣] .

وقد ترك لنا على بن بكار لمحات جميلة فى حياة المسلمين الروحية : إننا نراه يضع قاعدته فى الزهد فى صورة نصيحة لأحد تلامذته : اتق الله والزم بيتك وامسك لسانك واترك مخالطة الناس ، تنزل عليك الحكمة من فوقك » فهو إذن يؤمن بعلم لدنى ، يتنزل على الزاهد من أعلى ، حين يسلك طريق التصفية : التقوى ، والخلوة ، والصمت [٤] والانفراد . ويكره التزين والتصنع — حتى للعباد الكبار . فقد جاءه رسول من حذيفة المرعشى الزاهد الكبير يقرأه السلام . فيرد عليه على بن بكار قائلاً : «عليكم وعليه السلام ، لأنى لأعرفه يأكل الحلال منذ ثلاثين سنة» . ثم يفكر مليًّا ويقول «لأن ألقى الشيطان ، أحب إلى من أن ألقاه» ، وعجب الحاضرون وسألوه فى هذا . فأجاب : « أخاف أن

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣١٧ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٤) وله فى الصمت كلمات أوردها القشيرى فى الرسالة ج ١ ص ٣٠٣ .

أتصنع له ، فأتزين لغير الله ، فأسقط من عين الله[١] » . وهذا مقام فى التوحيد غريب ، يعلمه الزهاد والصوفية ، وهو متصل بأعماق نفوسهم . كان الكثيرون منهم ينأون عن مقابلة بعضهم البعض ، خوفاً من أن يتصنعوا ، ويداهنوا بعضهم البعض ، وخوفاً أيضاً من أن يحسد الواحد الآخر ، إذا ما أحسا بأنهما يتنافسان فى العبادة ، وأن أحدهما علا على الآخر فى عبادته . كانت العبادة ، والتزهد ، والخروج عن دنيا الناس ، لله وحده ، فلا ضير إن زاد الواحد منهم وقصر الآخر .

وكان مخلد بن الحسين ( المتوفى عام ١٩١ هـ ) أيضاً من فقهاء البصرة ، وعبادها وتحول أيضاً مرابطاً فى المصيصة ، صحبه إبراهيم بن أدهم ، وعلى بن بكار وأبى إسحاق الفزارى — وهو يمثل أيضاً الهجرة من الداخل إلى الثغور ، كما يمثل أيضاً فكرة الفقهاء والزهاد . وكان مخلد بن الحسين يعيش على عطاء الخلفاء ، ثم ينفق ما يأخذ على الفقراء . وقد ذكر القشيرى « كان يأخذ من السلطان ، ولا يأخذ من الإخوان . وكان يقول : السلطان لا يمن والإخوان يمنون[٢] » . وكان أهم ما يميز مخلد بن الحسين ، هو الصمت ومحاولة السيطرة على كلامه ، بحيث يقول : « ماتكلمت بكلمة أريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة » . ويدعو إلى المداراة ، حتى مداراة جاريته الحبشية . وإذا كان يدعو إلى المداراة ، فإنه يدعو إلى الخمول وعدم الشهرة فإذا ذكروا أخلاق بعض الصالحين أمامه ، ويبدو أن أصحاب مجلسه أدرجوه فى هؤلاء . فقال :

لا تعرضن بذكرنا « فى ذكرهم  ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

وأخيراً — لقد كان يرى مخلد أن الشيطان ليعرض للعباد فى كل ما ندبهم الله إليه ، ولا يبالى بأيهما ظفر ، إما غلوًّا فيه ، وإما تقصيراً عنه . كان مخلد بن الحسين إذن يدعو إلى القصد والاعتدال .

على أن أهم ما يميز مخلد بن الحسين فى تاريخ الحياة الروحية عند المسلمين أنه كان من رجال إبراهيم بن أدهم وفى صحبته ، وأنه ترك البصرة ، ترك دنياه كلها ليكون فى معيته .

ولكن ما يلبث أن يظهر فى الثغور زاهد من أكبر زهاد المسلمين ، ويعيش أيضاً فى رباط ابراهيم بن أدهم هو حذيفة بن قتادة المرعشى أو حذيفة المرتعش ( المتوفى عام ٢٠٧ هـ ) — وقد صحب حذيفة أول أمره سفيان الثورى[٣] ، ويبدو أنه خرج معه فى أسفاره مراراً ، « ولكنه شغل بالعبادة عن الرواية » ثم لزم إبراهيم بن أدهم ، بحيث كان يسأل بعد وفاة إبراهيم عن أحواله . ورحل معه مراراً إلى الحج ، وإلى الكوفة ، ثم استقر فى رباط المصيصة[٤] . غير أن السرى السقطى الصوفى البغدادى

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٣١٧ — ٣١٩ ، وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

(٢) القشيرى : الرسالة ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٣) ابن الجوزى : صفوة ج ٤ ص ٢٤٥ .

(٤) النبهانى : جامع كرامات الأولياء ج ١ ص ٣٨٦ ٪ ٣٨٧ .

المشهور يضعه فى أول الورعين فى زمانه فيقول « كان أهل الورع فى أوقاتهم أربعة : حذيفة المرتعش ويوسف بن أسباط وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخواص ، فنظروا فى الورع ، فلما ضاقت عليهم الأمور : فزعوا إلى التقلل »[١] أى فزعوا إلى أخذ القليل من الدنيا . وكان الورع رائد عدد كبير من العباد . وذكر حذيفة المرعشى دائماً فى قائمة هؤلاء « من أهل العلم الذين ينظرون فى الحلال – النظر الشديد ، لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ، وإلا استفوا التراب[٢] » وهذا يدل على ما كان للرجل من مكان عظيم فى تاريخ الزهد فى الإسلام وكان حذيفة يتكلم فى أعماق النفس الإنسانية . ويصنف القلوب فالقلوب قلبان : قلب ملح فى مسألة ، وقلب يتوقع ساعته . وأن عمل القلب على خوف سوء ، وكذلك عملها على رجاء . كلاهما سواء لديه . إنما أراد فقط قلباً خالياً من الاثنين من الخوف ومن الرجاء ، ومن الهوى « لا تهوى شيئاً » ومن القسوة . فإذا فعل هذا ، أصابته الحكمة ، وإنك ربما أصبت الحكمة فوق مزبلة . ولا بد من طاعة الله فى السر ، « فما أطاع الله فى السر ، أصلح له قلبه شاء أو أبى »[٣] ودعا إلى الوحدة ، وهى عنده أعظم من القيام بالفريضة جماعة ، لو أمكن الاحتيال لها . إن العالم يعرف ما يأتى عنها . ومن آثر مراد الله على هواه أفاض عليه كل شىء ، وسخر له الماء والهواء[٤] . وكذلك لا بد للقلب من الخشوع والخشوع هو قيام القلب بين يدى الحق – بهم مجموع[٥] . وأول ما يفقده الإنسان من دينه هو الخشوع ويطلق حذيفة بعض لمحات فى التصوف . فيعرف الإخلاص بأنه هو استواء أفعال العبد فى الظاهر والباطن[٦] .

واخيراً – إنه يدعو إلى الزهد الكامل فى الدنيا . . . ويذكر أنه منذ أربعين سنة لم يملك إلا قميصاً واحداً[٧] ولقد كان حذيفة . معلماً كبيراً وقد سأل أحمد بن يوسف بن أسباط أباه يوسف عن علم حذيفة . فأجاب يوسف «كان معه علم كبير – حسنه الله» والعلم المقصود هنا ... هو علم الزهاد والصوفية أو علم القلوب . فلم يكن حذيفة صاحب حديث بل شغل بالعبادة عن الرواية ولعل أحمد ابن يوسف بن أسباط كان يسأل أبيه عن علم حذيفة بالفقه والحديث ء وأجاب يوسف بأنه كان لديه كنز العلوم ، علم القلوب ، وهو الذى يحسنه الله ويلقيه فى نفوس العباد . وكما قلنا كان حذيفة معلماً

---

(١) القشيرى : الرسالة – ج ١ ص ٢٨٤ / ٢٨٥ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٧١ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .
(٥) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٣٣٩ .
(٦) نفس المصدر : ج ٢ ص ٤٤٣ .
(٧) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ٣٩ .

كبيراً أثر فى معاصريه كيوسف بن أسباط وغيره ، كما أثروا هم فيه ثم انتهى تأثيرهم إلى تلميذ كبير لهم هو عبد الله بن خبيق . بل كان هؤلاء الثلاثة ، يوسف بن أسباط وحذيفة بن قتادة ، ثم تلميذهما عبد الله بن خبيق يمثلون مدرسة كبيرة مترابطة ، ولعل هذا يدعونا إلى بحث فى مدرسة من مدارس الثغور . وهى أنطاكية .

obeikandl.com

# الفصل الرابع

## مدرسة أنطاكية

### بدايات التأثير اليونانى الفلسفى فى المسلمين

كانت أنطاكية مدينة رومانية قديمة وقد ازدهر فيها مركز للثقافة اليونانية العلمية والفلسفية وقد عانت أنطاكية فى القرون السابقة أحداثاً كثيرة ، فقد غزاها الفرس ، وكادوا أن يخربوها تخريباً كاملاً ، ثم خربتها زلازل متعددة ، وفتحها أبو عبيدة الجراح عام «١٧ هـ» وسكنها العرب ، واعتبروها «قصبة العواصم من الثغور الشامية» وكانت تتميز بطيب هوائها وعذوبة مائها وكثرة فواكهها ، وسعة الحياة فيها . «وكل شيء عند العرب من قبل الشام ، فهو أنطاكى[1] » وهذا يبين تماماً أهمية هذه المدينة وإقبال العرب على السكنى فيها .

ومن المؤكد أنه بقيت عناصرها الرومانية وآثار سكانها فى المدينة ، كما كان النصارى يعيشون بجانب المسلمين فيها ، وفيما حواليها من قرى . كما كانت الكنائس والبيع تنتشر فى أرجائها .

وكانت حياة «الإسكندرية» فى العهد الأول الإسلامى غير مستقرة ، إذ حاول الروم مراراً الاستيلاء على المدينة ، وكان أن تداولها أيدى البيزنطيين والمسلمين مراراً ثم استقرت بين أيدى المسلمين نهائيًا . ورأى أصحاب المجلس التعليم الفلسفى والطبى من اليونانين فى الإسكندرية أن حياتهم العلمية فى ثغر الإسكندرية مهددة . إذ أنقطع الاتصال العلمى بينهم وبين القسطنطينية عن طريق البحر ولذلك قرروا الانتقال من الإسكندرية – فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وقد اختاروا الانتقال إلى أنطاكية ، حقًا كانت حياة أنطاكية غير مستقرة أيضاً ، فقد كان البيزنطيون يحاولون الانقضاض عليها ثانية ولكن كانت المدينة – فى العصر الأموى – فى أيدى حكام أقوياء استطاعوا المحافظة عليها . ورأى أصحاب المجلس التعليم الفلسفى الإسكندرى أنهم يستطيعون فى أنطاكية الاتصال ببيزنطة خلال طريق القوافل ، وأن يتبادلوا الكتب ، وأن يكونوا على صلة ما بموطن العلم اليونانى حينئذ . ولم يكن غاية أصحاب المجلس التعليم الطبى الإسكندرى – الهجرة إلى بيزنطة ، ذلك لأن المدرسة بقيت فى أنطاكية . منذ انتقالها فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عهد المتوكل (٢٣٢ هـ . إلى ٢٤٧ هـ) . أى أن المدرسة بقيت فى أنطاكية حوالى مائة وعشرين أو مائة وأربعين عاماً تقريباً ثم

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٣ – ٣٥٩ .

انتقلت إلى حران . وكان عمل المدرسة الأساسى فى أنطاكية هو البحث عن المخطوطات واستيرادها فى أوقات السلم بين الدولة العربية والإمبراطورية البيزنطية ، علاوة على أنها كانت تعنى بالترجمة من اليونانية إلى السوريانية [١] .

كانت أنطاكية إذن موطناً علمياً خطيراً ، فى العهد الإسلامى ، كما كان لموقعها الجغرافى من حدود الدولتين ، أهمية حربية كبيرة ، أو بمعنى أدق كانت ثغراً بين ثغور الجهاد ، ورباطاً للغزو ، ومن هنا أقبل الزهاد عليها مجاهدين ... ، كما نشأ فى أراضيها وفى قراها زهاد شاميون .

## ١ – أحمد بن عاصم الأنطاكى فيلسوف التصوف الأول :

وإذا كان الغموض يحيط بتاريخ أنطاكية العلمى فى تلك الفترة ، فإنه أيضاً يحيط بتاريخ أول رجال الزهد فيها ، غير أننا خلال النقد الداخلى للنصوص – سنحاول أن نلقى نظرة تركيبية على هذه الشخصية الغريبة التى ظهرت فى أنطاكية ، وسنرى إلى أى حد انعكست ثقافة أنطاكية الفلسفية فيها ... وهذا الزاهد الأول أو رجل الروح الأول من رجال أنطاكية هو أحمد بن عاصم الأنطاكى[٢] . مع اختلاف فى كنيته : يقول السلمى «كنيته أبو على ويقال أبو عبد الله وهو الأصح» ثم يصفه بأنه من أقران بشر بن الحارث والسرى (السقطى) والحارث المحاسبى ثم يقول فى دقة «إنه رأى الفضيل بن عياض[٣] » أى أنه أخذ عنه ، ويتأيد هذا فعلا أنه ينقل – فيما أورده صاحب الحلية – عن الفضيل بن عياض بعض أقواله [٤] . ويبدو أيضاً أنه كان معاصراً لأبى سليمان الدارانى ، فقد كان الدارانى يسميه جاسوس القلوب[٥] . كما كان أكبر رواته وممن أخذوا عنه تلميذ أبى سليمان الدارانى الكبير – أى الزاهد أحمد بن أبى الحوارى . والدلائل ناطقة على أنه قابله واستمع إليه[٦] . كما أخذ عنه أيضاً عبد العزيز بن محمد بن المختار الدمشقى (ويقال له أيضاً الأنطاكى) ، وابنه أحمد بن عبد العزيز الأنطاكى ومحمد بن يوسف ، وأحمد بن محمد بن موسى الأنطاكى . كما نقل لنا قصيدته : عبد الله بن القاسم القرشى . ويذكر هذا القرشى أن أحمد بن عاصم أنشده هذه القصيدة .

---

(١) الدكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص ٦٣ – ٦٧ .
(٢) الكلاباذى : التعرف .... ج ١٢ .
(٣) السلمى : طبقات ص ١٣٧ ، الشعرانى : طبقات ج ١ ص ٧١ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨١ – ٢٨٣ .
(٥) الشعرانى : طبقات ج ١ ، والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ١٠٠ .
(٦) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٠ – ٢٩٧ .

كما روى عنه أيضاً على بن عبد الرحمن الزاهد » وكذلك ابن مسروق الجريرى[١] . أما ابن الجوزى فيقول إنه «من متقدمى مشايخ الثغور»[٢] إن من الأرجح إذن أن أحمد بن عاصم كان من طبقة أبى سليمان الدارانى وكان معاصراً له .

أما عن أساتذته ، فلا نعرف – فيما بين أيدينا من مصادر أنه تتلمذ على أحد من المشايخ من قبله اللهم إلا ذكره مرة واحدة للفضيل بن عياض – كما قلنا – كما أنه ليس لدينا أيضاً معلومات عن رحلاته وأسفاره ، اللهم إلا إذا كان قد قام بالحج وأنه قابل الفضيل بن عياض هناك فى مكة ، وسياق حديث الفضيل بن عياض الذى ينقله أحمد بن عاصم يثبت هذا ، إذ كان كلام الفضيل بن عياض موجهاً لابنه على . ونحن نعلم أن الفضيل بن عياض قد استقر هو وابنه وأسرته فى مكة . ولذلك أكاد أجزم بأن أحمد بن عاصم الأنطاكى كان من رجال القرن الثانى وأنه توفى فى أواخره . وإنى أشك كل الشك فيما رواه السلمى – ونقله إلينا القشيرى من أنه أخذ عن سهل بن عبد الله[٣] .

وهنا تقابلنا مشكلة ثقافته . إن ابن الجوزى يذكر أننا «لا نعلم له مسنداً[٤] . ويعنى هذا أنه لم يشتغل بالرواية ولكنه لا يعنى أنه جهل الحديث ، حقًّا إنه لا يذكر عنه أنه درس على إمام من أئمة الحديث ، كما لا يذكر أنه تلقى علم الزهد أو العبادة أو القلوب ، عن شيخ من الشيوخ . ولكنه يذكر فى قصيدته الوحيدة التى بقيت لنا أن لديه علماً إلهاميًّا – وهو علم القلوب – أو علم التصوف – كما سيعرف فيما بعد . وعلماً سماعيًّا : وهو الفقه والحديث . يقول :

هلم إلىّ الآن إن كنت طالباً سبيل هدى أو كنت للحق باغيا
فعندى من الأنباء علم مجرب فمنه بإلهام ومنه سماعيا[٥]

وهنا نتساءل هل أثرت ثقافة أنطاكية الفلسفية فى ثقافته ودخلت فيها . إن علينا أن نرجع إلى ما ترك من أقوال ، لنتفحص ما فيها من آثار خارجية .

إن أول ما نلقاه عن تلك الآثار الخارجية أو بمعنى أدق معرفته بالتراث الفلسفى هو ما ذكره بنفسه «إنى تبحرت العلوم وجربت الأصول ، وأدمت الفكر وألهمت الاعتبار ، وعنيت بالأذكار وطالعت الحكمة ، ودارست الموعظة وتدبرت القول بالمعقول ، وصرفت المعانى بالذهن[٦] » وهذا يدل

(١) السلمى : طبقات ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٥٢ .
(٣) القشيرى : الرسالة : ج ١ ص ٢٧٨ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٥٣ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٩٦ .
(٦) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٩ .

دلالة واضحة على سعة ثقافة الرجل ، ودراسته «للحكمة» وتبحره فى مختلف العلوم ، «أو بمعنى أدق لم يكن الرجل بمنأى عن الثقافة العامة المنتشرة فى الشام عامة . وفى أنطاكية على وجه الخصوص . ثم نراه فى قصيدته يذكر أن لديه «حكمة النفس . والعلم العقلى» و «علم تقادم عهده[١]» .

ولكن ليس هذا كل ما نراه فى تراثه[٢] ، إننا نرى نوعاً من المصطلح الفلسفى يظهر فيه ، حقًّا إن هذا المصطلح باهت ، ولكن لا شك أنه موجود . ومن الأدلة على هذا :

(ا) يذكر كلمة «الجوهر» . فيقول : جوهرك ... جوهر الفضائح . كما يقول فى قصيدته :

ومن بعد ذا عندى من العلم جوهر يفيدك علماً إن وعيت كلاميا

ونحن نعلم أن كلمة الجوهر دخلت إلى التراث الإسلامى الأول فى المرحلة الثانية من الترجمة عرف التراجمة أولاً كلمة عين ترجمة لكلمة أوسيا اليونانية ، ثم أبدلت كلمة عين بكلمة جوهر فى الترجمة التالية . وكلمة جوهر . . . كما نعلم فارسية الأصل .

(ب) يستخدم أحمد بن عاصم مصطلح الحكماء «إن الحكماء نظروا إلى الدنيا بعين القلا ، إذ صح عندهم أن شهوات الدنيا تفسد عليهم كلمتهم» وفى موضع آخر يذكر «جملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة» وفى موضع ثالث يقول «من تآخى الحكمة شغل عما سواها»[٣] . وقد يقال : ما هو المقصود بالحكماء والحكمة . . . إن السياق واضح أنه لا يقصد بهم أبداً ، العباد السابقين من المسلمين ، بل نوعاً معيناً من الناس . ونحن نعلم كيف صور سقراط وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان وحكمائهم فى صورة قديسين وأصفياء أقرب إلى قديسى المسيحية وأصفيائهم . وفى عبارته «من تآخى الحكمة شغل عما سواها» مسحة سقراطية أفلاطونية .

(حـ) ويؤيد هذا عبارة لأحمد بن عاصم الأنطاكى هى «لا معرفة كمعرفة نفسك»[٤] . وهى تشبه قول سقراط المشهور «إعرف نفسك» وقد انتشر هذا القول ، ووضع أحياناً كحديث ، وأحياناً أخرى كأثر عن الإمام على .

(د) ظهرت كلمة المعرفة عنده ، وأعطاها معنى «التذوق» أو الغنوص «أشتهى أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين» الذين يستحبونه ، لا معرفة التصديق[٥] . «وسأعود إلى هذا النص فيما بعد . كما

---

(١) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٩٦ .
(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ – ٢٩٠ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ .
(٤) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٩ .
(٥) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٢ .

أنه فى نص آخر يكاد يكون فى نمط فلسفى يقول «أن تخرج معرفة الله وإخلاص توحيده من صحة التركيب وحجة المعقود ، وفضيلة الإلهام فى الملكوت ودلالة العلم»[١] .

(هـ) يتكلم عن العقل فيقول «جعل للعقل شكلا هو العلم ، والهوى والباطل شكلان مؤتلفان قرينان»[٢] . وهذا تعبير فلسفى واضح . كما أنه يضع تقسيماً منطقياً فيقول «حركات الخير والشر من الطاعات والمعاصى جعلها الله أضداداً»[٣] والتقاسيم المنطقية تسيطر على أغلب كلامه ، مما يرجح اطلاعه على بعض ترجمات المنطق .

(و) يذكر الحواس الخمس فيقول «الحواس خمس وسادسها الملك ، وهو القلب» ولكنه ما يلبث أن يضع مصطلحاً منطقيًّا واضحاً فيقول : وإنما يوصل إلى فهم المعرفة أجناسها . ويرجح من كل هذه النصوص أن أحمد بن عاصم الأنطاكى كان على إلمام بالفلسفة التى بدت بواكيرها فى أنطاكية ، حين انتقل مجلس التعليم الطبى والفلسفى إليها : ولا شك أنه كان على صلات ببعض رجالها ، كما كان عليه — وهو شيخ الثغر — أنطاكية — أن يختلط بالمسيحيين من أهل أنطاكية ، وأن يعرف الكثير منهم عن ثقافة الأوائل وعلومهم . وسنعرض لمذهبه طبقاً لما ترك لنا عنه من شذرات متفرقة أحياناً ، ومن فقرات متجمعة أحياناً .

**النفس الإنسانية :**

شغل أحمد بن عاصم بالنفس الإنسانية : فالنفس الإنسانية هى موطن الشرور والأهواء . فلابد من الاستعانة بالله على مخالفة أهوائها ومجاهدة «هذا العدو» . وكل نفس مسئولة : وهى مرتهنة أو مخلصة «وفكاك الرهون بعد قضاء الديون ، فإذا أغلقت الرهون ، أكدت الديون ، وإذا أكدت الديون ، استوجبوا السجون» فالإنسان إذن حبيس لنفسه الشريرة إذا سيطرت على الإنسان سجن السجن النهائى ولا فكاك . ولذلك يتطلب أحمد بن عاصم من المريد أن يشتغل بالله مضطرًّا إليه — فى رحاب الجبرية المطلق ، فى محط الخوف من عقابه ، فى محط الرجاء لثوابه . وأن يقطع الدنيا ، لا ديون ولا رهون ، مخلصة خالصة من أدران البشرية ، قاطعاً لعقبة الكذب «بالخوف الحاجز وبصدق المناجاة للاضطرار بقلب موجع» وأن يأخذ الإنسان فى المحاسبة . ونحن نتساءل هل أخذ فكرة المحاسبة عن المحاسبى . وقد قيل إنه من أقرانه ، إنه يحددها بأن يعقل الإنسان درجته ولا يزهو عند

---

(١) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٨ .

الخلائق بكثرة تقياته . إن جوهر الإنسان هو جوهر الفضائح وسيماه سيما الأبرار . وفى المحاسبة أن نستحى من الله . . . وأن تستحى من قبولك من نفسك دعوى الصدق . إنها مفتضحة عندك ، وأنت تنكر ، لقد بان لك جوهرها من خالص ضميرها ، من خالص مكنونها الداخلى بإيثارها حجة الكذب على حجة الصدق . لا بد لك حينئذ من عداوتك لها ، وأن يكون حظك ونصيبك الكامل الحق ، هنا ينبغى فى خلوتك مع الله أن تقر عليها بالكذب ، وأن تبكى بدمع سخين على ما ظهر منها ، وعليك أنت باستدراجها–فتكون هى من المستدرجين لا أنت . ويؤيد هذا . . . بنص إسرائيلى عن عزير . . . إله البرية : إنى لأعد نفسى مع الكذابين الظالمين ، وروحى مع أرواح الهلكى ، وبدنى مع أبدان المعذبين «إذن ماذا بقى للإنسان– يقول أحمد بن عاصم «إذا صارت المعاملة إلى القلوب ، استراحت الجوارح» .

والقلب . . . هو الملك ، الحاسة السادسة ؛ فإذا أحس كل شىء ، بهذا القلب الموجع ، صفا وكثر تيقظه ، وتسورت عليه طوارق الأحزان ، وقلّت فيه الغفلة ، وتملكه اليقين الذى يتفجر منه الخوف والشكر . ولكن من يستطيع هذا «إن مخرج الشكر من اليقين عزيز غير موجود»[1] ولكن لا بد من المحاولة : لكى تنتقل إلى صفاء القلب : أن تزوى عنك الدنيا ، وأن يمن عليك بالقنوع ، ويصرف عنك وجوه الناس ، ويمن عليك بالرضا . وهو فى هذا يتطلب أن يصل الإنسان إلى حالة السلب المطلق–ألا تمتحن بالدنيا بعد– أى لا تتعرض لها .

وهنا تتوالى الدرجات على قلب الإنسان : اليقين : وهو ما عظم فى عينك ما به قد أيقنت ، وصغر فى عينك ما دون ذلك[2] . والخوف : وهو ما حجزك عن المعاصى وأطال منك الحزن على ما قد فات ، وألزمك الفكر فى بقية حياتك . والرجاء وهو ما سهل عليك العمل لإدراك ما ترجو ، والحق : وهو إنصافك للناس من نفسك ، وقبولك الحق ممن هو أدنى منك . والصدق : وهو أن تقر لله بعيوب نفسك وأن تنى عنك الكذب فى مواطن الصدق . والإخلاص وهو : ما ينى عنك الرياء والتزين والتصنع[3] . والحياء : وهو أن تستحى أن تسأله ما تحت ، وتأتى ما يكره ، والشكر : وهو أن تعرف منه ما ستر عليك من مساوئك ، فلم يطلع أحد من المخلوقين عليك . والتوكل : هو الوثوق بضمانه وإحسان طلبته . والغنى : وهو ما ينى عنك الفقر وخوف الفقر . والفقر هو ما يتجمل به المريد ويرضى ، والصبر هو أن تقوى على خلاف هواك ، ولم يجد الجزع فيه مساغاً .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٣) السلمى : طبقات ص ١٣٨ .

فينبغى على المريد أن يعانى كل هذه الدرجات ، وهى ما عرف فى تاريخ التصوف بعد بالمقامات ، لكى يصل إلى تصفية القلب . ولذلك كان ينادى بأن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله هو ترك معاصيه الباطنة ، وإذا اجتنب الباطنة ، بطلت الظاهرة والباطنة معاً : وأضر المعاصى عنده ؛ ما لا يعلم أنها معصية ، وأضر من هذه ما يعلم أنها طاعة ، وهى لله معصية . ومع ذلك فإن للمعاصى نفقاً : وهى أن يطيل البكاء عليها إلى مفارقته للدنيا . . . وفى موضع أخفى لشخصه — وهو صومعته وداخل بيته [١] .

وهؤلاء أهل الطاعة « قد قدموا بين يدى الأعمال يصف المعرفة بالأسباب التى يستديمون بها صالح الأعمال . ويسهل عليهم مأخذه » هؤلاء جعلوا أيامهم فى الدنيا يوماً واحداً وليلة واحدة ، كلما مضت استأنفوا النية ، على أن تعود كما هى « إنهم طلبوا من أنفسهم حسن الصحبة ليومهم وليلتهم » كلما مضى يوم وليلة راقبوا أنفسهم ، خوفاً من أن تميل عن الطاعة ، فإذا صحت المراقبة ، كانت غنماً ، وتذكروا اليوم الماضى ، فأفعمهم سروراً . وصبروا أنفسهم على المستقبل لانقضاء الأجل فيه أو فى ليلته . فاطرحوا شغل القلب بانقضاء تذكر غد ، وأعملوا أبدانهم وجوارحهم ، وفرغوا له قلوبهم .

هؤلاء أهل الطاعة ، قصرت الآمال عندهم بل انعدمت ، وقربت منهم الآجال ، فالموت دائماً نصب أعينهم . بعدت عن قلوبهم أسباب وسواس الدنيا ، ولم يعد فى صدورهم سوى شغل الآخرة . ونظروا إلى الآخرة بعين البصيرة ، وتقربوا إلى الله بأزكى الأعمال ، فاستقامت سيرتهم على المحجة ، حين عاونتهم الزيادة فى التقوى . هؤلاء أهل الطاعة قرت أعينهم بالخوف ، وتنعموا بالحزن فى عبادتهم [٢] ، نحلت أجسامهم ، وبليت أجسادهم ، ويبست على العظام جلودهم . ولم يعد بهم حاجة لكلام مع المخلوقات . . . لأنهم فى لذاذة النجوى مع خالقهم « قلوبهم بملكوت السماء متعلقة » وذكرهم بأحوال القيامة مقبلة مدبرة . عربت أبدانهم بين المخلوقات ، فعموا عن دنيا هؤلاء ، وأصابهم الصمم فما عادوا يسمعون أهل الدنيا ، ولا من فيها وما فيها ، الآخرة أمام عيونهم كأنهم ينظرونها دائماً ، ألقى الله فى قلوبهم باليقين « وهو نور يجعله الله فى قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته . ويخرق بقوته كل حجاب بينه وبين ما فى الآخرة ، حتى يطالع تلك الأمور كالمشاهد لها [٣] . بل إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب ملأه نوراً ، ونفى عنه كل ريب وشك وامتلأ القلب به شكراً ، ومن الله خوفاً [٤] .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٢ ، ٤٨٤ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(٣) السلمى : طبقات ص ١٣٩ .
(٤) السلمى : طبقات ص ١٣٧ .

وهؤلاء عنده هم الحكماء «نظروا إلى الدنيا» بعين اليقين ، إذ صح عندهم أن شهوات الدنيا تفسد عليهم حكمتهم ونظروا إلى الآخرة «بأعين قلوبهم» فصيروا الدنيا عندهم معبراً يجوزون عليها ، لا حاجة لهم فى الإقامة فيها ، والآخرة منزلا لا يريدون بها بدلا ، ولا عنها حولا ، فسرحت أحوالهم فى ملكوت السماء ، واتخذوا للمكروه فى جنب الله تعالى جنة» . هؤلاء رحلوا إلى قرة العين وسعة الصدر وطيب النفس وروح القلب . . . من أمور أربعة استبانت لهم الحجة ، وأنسوا بالأحبة ، ووثقوا بالعدة ، وعاينوا للغاية [١] .

وهنا يعود ثانية إلى القلب . إن هموم هؤلاء الحكماء فى قلوبهم وقلوبهم ساكنة عند الله . ثم يكرر ثانية أعين لقلوبهم . فيقول «نظروا بأعين القلوب واستربحوا دلالات العقول على جلب الهوى ، نظروا بأعين قلوبهم إلى الآخرة فأيقنوا واستبصروا ، ونظروا بأعين الوجوه إلى الدنيا ، فاعتبروا وانزجروا فاستصغرا ما أحاطت به أعين الوجوه من الدنيا» واستعظموا ما أحاطت به أعين القلوب من ملك الآخرة» .

وهكذا نراه دائماً يلغى البصر ليبقى البصيرة ، وينكر عن الوجه ، متجهاً نحو عين القلب ، ناظراً فقط إلى الحكيم : هل هو العابد المسلم القديم ، أم سقراط الأفلاطونى ، أم الحكيم الرواقى ، أم الحكيم الجيمنوفيست – الحكيم الهندى العارى – أم هؤلاء جميعاً . إنه يجمعهم جميعاً فى قوله : «تخلص إلى ذلك قوم من طريق الاجتهاد لتذل النفس ، وتخضع لهم الجوارح ، فاجتهد قوم فى الصلاة لدوام الخشوع عليهم ، واجتهد قوم فى الصوم لهدو الجوارح عنهم ، واجتهد قوم فى ترك الشهوات وطلب الفوز» وكل ذلك «من رياضة النفس حتى أفضوا بالأنفس إلى الجوع ونحول الجسم» وكلهم معلقون فى ملكوت السماء [٢] ، كما قال .

رأينا إذن أن أحمد بن عاصم كان حقًّا جاسوس القلوب ، وهو الذى يقول «إذا جالستم أهل الصدق ، فجالبوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب . يدخلون فى قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسون [٣] » . وجهد أن يعلم مريديه علاجها ، فأكثر وأكثر من التكلم فيها ، بل وضع القلب مركز كل شىء فى طريقه ، فالزهد ينتهى إلى القلب «استجلب حلاوة الزهد بقصر الأمل واقطع أسباب الطمع بصحة الأياس» حينئذ تخلص إلى راحة القلب بصحة التفويض . وراحة البدن لن تكون إلا «بإحجام القلب» ويخلص السالك إلى إحجام القلب بقلة الخطأ وترك الطلب . وإن «مجالس

---

(١) القشيرى : الرسالة ج ص ٣٩٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٥ ، ٢٨٩ .

(٣) القشيرى : الرسالة ص ٣٩٠ والكلاباذى : التعرف ص ٨ .

الذكر» إنما غايتها «رقة القلب» ولن يصل المريد إلى استجلاب نور القلب «إلا بدوام الحزن واستفتاح باب الحزن إنما هو بطول الفكر ، والتماس وجود الفكر فى مواطن الخلوات[١] . مواطن الخلوات : إنه يصيح صيحة رهيبة : اعمل على أن ليس فى الأرض أحد غيرك . ولا فى السماء أحد غيره[٢] .

**المعرفة :**

والغاية من تصفية القلب هى التوصل إلى علم «المعرفة» إنها نور اليقين ، بها يعرف الإنسان نفسه ، ثم يعرف ربه . وقد رأينا من قبل مما ذكره من خاض العلوم المختلفة . وطالع الحكمة ، ودرس المعقول والمنقول فلم يجد «من العلم علما ، ولا للصدر أشفى ، ولا للهم أتقى ، ولا بالعبد أولى من علم معرفة المعبود ، وتوحيده ، واليقين بآخرته» . ومهما جهد السالك نفسه فلن يصل إلى نهاية هذا العلم «والفكر ليست لها غاية ، والإلهام لا نهاية له[٣] » ، وبدون هذا العلم يصح الارتياب أى الشك ، إنه هو الطريق الوحيد اليقينى لمعرفة الله . ولذلك يقول لأحمد بن أبى الحوارى : «ما أغبط أحداً إلا من عرف مولاه ، وأشتهى أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين الذى يستحيونه لا معرفة التصديق . ومرة أخرى يقول له : «أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاى . يا أحمد ، ليس المعرفة الإقرار به ، ولكن المعرفة التى إذا عرفت ، استحييت[٤] وإذا ما توصلت النفس إلى معرفة الله ، المعرفة الذوقية الانقداحية ، وتوضحت لها حقيقة لفظة الجلالة «تلذذت الجوارح بذكرها ، وهشت الأبدان لاستماعها ، ووضحت العقول حقائقها ، وهان على المسامع وعيها ، مستأنسة إليها أرواح الموقنين ، مطمئنة إليها أنفس المتقين ، وآلهة عليها أبصار المتفكرين ، قنعة بها قلوب المستبصرين . متناهية إليها أوهام المتوهمين ، ساكنة إليها فكر الناظرين ، مستبشرة بها إخلاص الصديقين ، كلمة خف على القلوب محملها . ولان على الجوارح ملفظها ، وسلس على الألسن ترددها ، وعذب على اللهوات مقالتها ، وبرد على الأكباد لذاذتها[٥]» وتلك هى غاية الزاهد . . .

وبعد : فتلك صورة تركيبية لأفكار الشيخ القديم من زهاد المسلمين ، وأول زاهد فى أنطاكية ، الثغر الشمالى الغريب . ولكن ما لبث أن ظهر فى أنطاكية مدرسة زهد تختلف أشد الاختلاف عن منهج أحمد بن عاصم . كانت تستند أولا على الفقه والحديث ، وإن أنكرتهما حين بلغ الزهد بهم مداه[٦].

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٨ .
(٢) السلمى : طبقات ص ١٣٩ .
(٣) أبو نعيم : ج ٩ ص ٢٨٩ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٩ .
(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٢ ، وابن الجوزى صفة : ج ٤ ص ٢٥٢ .
(٦) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨١ .

**٢ – يوسف بن أسباط :**

وكان أبرز هؤلاء الزهاد من أهلها–وكما قلت من قبل–هو يوسف بن أسباط (المتوفى عام ١٩٩) الزاهد والفقيه والمحدث الشامى المشهور. وتتميز مدرسة أنطاكية ، وبخاصة فى يوسف بن أسباط ، ميزان زهاد الثغور والعواصم : اجتماع الفقه والحديث والزهد فى شخص العابد أو الزاهد أو المرابط . ولقد كان يوسف بن أسباط من كبار المحدثين . إذ تلقى الحديث والفقه عن إمامه الكبير سفيان الثورى . وهذا يعنى أن يوسف بن أسباط عاش فى الكوفة فترة ، وانتقل مع سفيان الثورى وصاحبه فى رحلاته المتعددة . ثم ما لبث أن عاد إلى شيخ موطنه حيث استقر فيه ، وكان شيخ قرية من قرى أنطاكية[١] .

كان يوسف بن أسباط أكبر تلامذة الثورى بلا شك ، وقد حمل فقهه وعلمه ، كما حمل تزهده وعبادته إلى الشام ، بل حاكاه حتى فى أسلوب حياته . وقد اتخذ قاعدة أستاذه «كان لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان شيئاً» بل زاد أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم ، ولم يأخذ منها شيئاً ، وكان يتكسب من صنع الخوص بيده[٢] . وقد نأى بهذا عن الأمراء والحكام ، وازدراهم كما ازدراهم سفيان من قبل «ويذكر تلميذه عبدالله بن ضيق أنه كان لديه حين حضر أمير أنطاكية –وعليه «قلنسوة شاشية» يسأله فى مسألة فقهية . فرد عليه يوسف «إن أستاذى سفيان كان لا يفتى من على رأسه مثل هذا» ، فأطاع الأمير وخلع قلنسوته . فأفتاه سفيان[٣] . . . وأطلق صيحة أستاذه الرهيبة – فى الشام كما أطلقها سفيان من قبل فى الكوفة «الزهد فى الرياسة أشد من الزهد فى الدنيا[٤] » ، ثم انقض يوسف على القراء ، كما انقض أستاذه من قبل «والله لقد أدركت أقواما فساقا ، كانوا أشد إبقاءاً على مروءاتهم من قراء أهل هذا الزمان على أديانهم» ثم يردد «إياك أن تكون من قراء السوء» . . . ويردد أقوال سابقيه فى هؤلاء القراء : الحسن البصرى وأبا رزين والثورى بل خشى يوسف على الأمة كلها من هؤلاء القراء «إنى أخاف أن يعذب الله الناس بذنوب العلماء[٥] » وهو ينهى صديقه العابد أبا إسحاق الفزارى عن الحديث «بلغنى أنك صرت آنسا بأهل الجفاء» . فرد عليه

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية .
ماكس ماير صوف : انتقالى التراث ص ٦٧ – ٧٣ .

(٢) القشيرى : الرسالة ج ٢ ص ٥٤٣ . وأنظر أيضا قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ٦ ، ٤٢١ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٣٨ ، ابن الجوزى ، صفة ج ٤ ص ٢٣٦ .

(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٣٩ ، ابن الجوزى ، صفة ج ٤ ص ٢٣٦ .

أبو إسحاق الفزارى–كيف أصنع بهذا الجرب– يعنى الحديث » فكتب إليه يوسف : « لا تحكه حتى لا يحكك[١] » . وهذا يدل أيضاً على أن يوسف–كسفيان الثورى تماماً– انتهى إلى كراهية التحديث–حين رأى القراء يتخذونه سلماً للخلفاء ، وطريقاً للغنى وللثروة . وهذا ما دعا سفيان الثورى من قبل أن يلعن هؤلاء القراء–وأن يقول لأحدهم وقد تزين : « تزينوا بما شئتم ، فلن يزيدكم إلا اتضاعاً » وعاد أيضاً إلى كراهية حلقة أبى حنيفة ، وقد رأها ترجو وصال الخلفاء ، ثم تضع الحبل للناس ، وقد أدى هذا إلى محاربة فقهه ، ونشر فقه أبى حنيفة ، فمات الفقه الأول ، وعاش الفقه الثانى . وكذلك فعل يوسف بن أسباط فى الشام . وكان يقول : إذا رأيت الرجل قد حدثنا ، فلا تعظه ، فليس للموعظة فيه موضع ، وإذا رأيت الرجل منهم قد أشر وبطر ، فلا تعظه فليس للعظة فيه موضع » ونراه دائماً يتكلم عن داود الطائى[٢] ، ويذكر أخباره ، وقد كان داود من تلامذة أبى حنيفة ، ثم كره الفقه والحديث .

وعاش يوسف بن أسباط فى ضواحى أنطاكية–كما قلت–حاملا « طريقة الثورى » الزهد الذى يحكمه الفقه– أو بمعنى أدق ما أسميه « بالزهد السنى » فيقرر أن الزهد هو فى حلال الله ، أما الزهد فيما حرم الله ، فليس زهداً ، إنه واجب المسلمين جميعاً . ولما سئل عن غاية الزهد ، أى الزهد فى كماله أجاب : بأن لا تفرح بما أقبل ، ولا تأسف على ما أدبر . وأما التواضع فهو كماله فهو عنده « أن تخرج من بيتك ، فلا تلقى أحدا إلا رأيت أنه خير منك » . . . « والدنيا دار نعيم الظالمين » ويتمثل بقول الإمام على « الدنيا جيفة ، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب[٣] » .

وكان أمامه–كما قلت– حب الرياسة وشهوتها . وهى –كما قال– أشد من حب الدنيا نفسها . وهنا يقول . لى أربعون سنة ، ما حك فى صدرى شىء إلا تركته » . وهذا بلا شك من أعظم المعاناة فى التصفية ، ولذلك لم يتمكن من أن يميز بين صحة العمل إلا بعد علاج نفسى استمر لمدة عشرين عاما « تعلموا صحة العمل من سقمه ، فإنى تعلمته فى اثنتين وعشرين سنة[٤] » وهكذا كان يوسف بن أسباط المعلم الكبير لطريقة الثورى فى أرباض الشام فقيه من ناحية ، وزاهد من ناحية أخرى . . .

وكانت مشكلة الحلال والحرام فى الأرزاق مشكلة الزهاد . ووقف يوسف فى حلقته يقول كفقيه

---

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٣٩ .

(٢) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٧٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣٦ ، وأبو طالب المكى : قوت ج ٢ ص ٥٩٢ .

«الأشياء ثلاثة ، حلال بين ، وحرام بين لا شك فيه ، وشبهات بين ذلك» . . . وماذا يفعل المؤمن حيال هذا : يجيب يوسف «المؤمن من إذا لم يجد الحلال يتناول من الشبهات ما يقيمه . . .» ولكنه ما يلبث أن يقرر كزاهد — أن الزهد . . . هو الزهد فى الحلال «إن الزهد لا يكون إلا فى الحلال المحض ، والحلال المحض لا يعرف اليوم»[١] .

ويتكلم يوسف بن أسباط فى خطرات القلوب . . . خلق الله تعالى القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن الشهوات ، ولا يفسد القلوب سوى الشهوات والطريق لمحو الشهوة هو خوف مزعج أو شوق مقلق «فهو إذن يضع الزاهد بين درجتين ، أو مقامين مقام الخوف ؛ أو مقام الشوق»[٢] وكان هو يدعو الله «اللهم عرفنى نفسى ، ولا تقطع رجاءك من قلبى» . . . ولكى يعرف نفسه يدعو فى رسالة له إلى حذيفة المرعشى «أن يعمل بما علمه الله» وهو هنا يشير إلى العلم اللدنى ، والمراقبة «حيث لا يرام أحد إلا الله» والمراقبة هنا تعنى مراقبة النفس . . . ويحذره التشاغل بالوصف وترك العمل بالموصوف وأن يراعى «الدقيق الخفى والجليل الجافى» . . . ويحذره «وساوس الصدور» . . . ولحظات العيون» وإصغاء الأسماع . . . ويرزق الصادق فى كل هذا ثلاث خصال : الحلاوة والملاحة والمهابة[٣] .

وكان يتكلم عن استكمال الإيمان ، ويذكر أن لا بد من ثلاث خصال لتحقيق هذا : من إذا رضى ، لم يخرج رضاه إلى باطل ، وإذا غضب ، لم يخرج غضبه عن حق ، وإذا قدر ، لم يأخذ ما ليس له[٤] .

وحين أراد الذهبى أن يؤرخ بين المحدثين فى ميزان الاعتدال وصفه بالوعظ والزهد فقال : «يوسف بن أسباط الشيبانى الزاهد الواعظ» وذكر أنه أخذ عن سفيان الثورى وغيره ، وأخذ عنه عبدالله بن خبيق الأنطاكى . ثم ذكر أن البعض عدلوه ، والبعض جرحوه . وذكر قول البخارى فيه «كان قد دفن كتبه ، فكان لا يجىء بحديثه كما ينبغى[٥]» ونحن نعلم أن الرجل كان قد ترك الحديث حين تزهد ، بل امتنع عنه ، ونهى أصحابه عنه . ولم يكن هذا ضعفاً أو داعياً لوضعه فى الضعفاء ، وإنما هى سنة اتخذها كبار القراء وفى مقدمتهم سفيان ، حتى تزهدوا ، وحين رأوا كبار القراء والفقهاء يتخذون الحديث سلماً للدنيا وللمنصب .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، وأبو طالب : قوت ج ١ ص ٥٤٥ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣٦ .
(٣) نفس المصدر : صفة ج ٤ ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .
(٤) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ١٥٩ .
(٥) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٤٦٢ .

هذا كل ما ذكر لنا عن يوسف بن أسباط – فيما بين أيدينا من مصادر– ولا شك أن هناك المزيد ، لم نكشف عنه . ومن العجيب أننا لم نلحظ – فيما ترك لنا من نصوص أنه اعتنق نظرية الخلة ، ونظرية الحب ونظرية الروحانية ، وهى كلها نظريات تبناها الثورى فى نهاية حياته ، وتحت تأثير مدرسة البصرة .

**٣ – أبو محمد عبدالله بن خبيق :**

واقتربت مدرسة أنطاكية من التصوف على يد تلميذ يوسف بن أسباط وهو أبو محمد عبدالله بن خبيق الأنطاكى . ويعتبره الكلاباذى «أول من صنف فى علم المعاملات» [١] وأما السلمى فقد وضعه فى الطبقة الأولى من الصوفية ووصفه بأنه من «زهاد الصوفية ، والآكلين من الحلال ، والورعين فى جميع أحواله» [٢] وكذلك القشيرى فإنه يذكره بأنه كان من زهاد المتصوفة» [٣] نرى من هذا كله أننا أمام بدء التصوف الحقيقى ، كعلم من علوم المعاملات ، بين الإنسان وربه . وتجمع المصادر على أنه أخذ عن يوسف بن أسباط واستفاد به . ويذكر أن أصله من الكوفة ، ولكنه من الناقلة إلى أنطاكية وأن طريقته فى التصوف هى «طريقة الثورى فإنه صحب أصحابه» [٤] ولا شك أن الرجل – وقد عاش حياته فى الكوفة ، وعلم بعظمة سفيان الثورى الفكرية والروحية فسعى إلى أصحابه . ولزم يوسف بن أسباط ، وغيره من أصحاب سفيان ، فدرس الفقه والحديث ، ثم تزهد وتصوف ، كما أنه تردد على كثيرين من رجال الزهد فى الشام والعراق والحجاز ، حتى انتهت إليه رياسة مدرسة أنطاكية الروحية .

وقد عانى الرجل نفس التجربة التى عاناها أستاذه يوسف بن أسباط مع القراء وقد نهاه أستاذه يوسف ، عن أن يكون «من قراء السوق» ويقول هو نفسه حاضًا القراء على عدم ارتكاب المعاصى ، «إذا دنا الرجل القارئ من معصية ، يقول القرآن فى جوفه ، ما لهذا حملتنى» [٥] . كما نهاه شيخه الآخر حذيفة المرعشى عن حب الدنيا والنامس ، وعلمه الفضيل بن عياض عن رياء النفس فقال له «رأس الأدب عندنا أن يعرف الرجل قدره» واتجه إلى القلب . . . كما اتجه الزهاد من قبله ، يحاول أن

---

(١) الكلاباذى : التعرف . . . . ص ١٢ .

(٢) السلمى : طبقات ص ١٤١ .

(٣) القشيرى : الرسالة . . ج ١ ص ٩٩ .

(٤) السلمى : طبقات ص ١٤١ ، والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، والشعرانى : طبقات ج ١ ص ٧١ .

(٥) السلمى : طبقات ص ١٤٣ .

ينقيه ، ويجعله باب المعاملات ونهايتها مع الله[١] . فيتكلم عن محور « الشهوات من القلوب » ووحشة العباد عن الحق ، أوحشت منهم القلوب ، ولو أنسوا بربهم ، ولزموا الحق ، لاستأنس بهم كل أحد » وطول الاستماع إلى الباطل ، يطفئ حلاوة الطاعة من القلب . وهو يرى أن الغنى هو ألا يسكن الطمع القلب .

ولقد خاض الزهاد من قبله فى كل تلك المعانى ، ولكن ما هو الداعى لاعتباره من زهاد المتصوفة وتخصيصه بهذا الاسم دون أساتذته . . . إن أكثر ما تركه عبدالله بن خبيق من آراء هى هى آراء يوسف بن أسباط وحذيفة بلفظها . . . ولكن عبدالله بن خبيق تميز – وكما قال الكلاباذى – بأنه من أوائل من تكلموا فى معاملات القلوب ، واختص بالتحدث فى الأحوال ، والنصوص قليلة . . . ولكن من المؤكد أنه تكلم فى الأحوال ونظمها وهو بصدد التكلم عن الصدق . يقول « لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق ، والصدق مستغن عن الأحوال كلها ، ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله ، حقيقة الصدق ، لأطلع على خزانة من خزانة الغيب ، ولكان أميناً فى السموات والأرض »[٢] . . . وهو هنا يستخدم كلمة الأحوال كمصطلح ، ويتبين هذا من نص آخر ، يسأله فيه أحد المريدين « بماذا ألزم الحق فى أحوالى ، فيجيب عبدالله بن خبيق « بإنصاف الناس من نفسك ، وقبول الحق ممن هو دونك »[٣] . . . ولعل هذا مما دعا الكلاباذى إلى اعتباره أول من صنف فى علم المعاملات ، أى معاملات القلوب على الإطلاق .

ولكن إذا كانت فكرة الأحوال قد انتظمت له ، فإنه أيضاً خاض فى فكرة السلوك . . . وهو يتكلم عن العمل ، فيرى أن « إخلاص العمل أشد من العمل ، والعمل يعجز عنه الرجال » ويربط الرجاء بالعمل ، فأنفع الرجاء ما سهل على المريد العمل ، لإدراك ما يرجو . . . وقد اهتم عبدالله بن خبيق بالرجاء . ونحن نعلم أن مفهوم الرجاء قد « أخذ مكانه لدى الصوفية من بعده ، واعتبر الرجاء » تعلق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل ، وهو حياة القلوب واستقلالها بالأجر الأخروى . وفرق الصوفية بين الرجاء والتمنى ، إن التمنى أمنية تتردد ، خاطر يرد ، فهو مرتبط بالكسل ، أما الرجاء فهو سلوك طريق الجهد والجهد . . . وكان ابن خبيق من أوائل من تكلموا فى الرجاء وقسمه إلى ثلاثة – رجل عمل حسنة ، فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ، ثم تاب ، فهو يرجو المغفرة . ورجل كاذب

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١٦٨ .
(٢) السلمى : طبقات ١٤٤ أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١٦٩ .
(٣) السلمى : طبقات ١٤٥ .

يتادى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة [١] . والرجاء يرتبط بالإيثار عنده ، وهو يصرح « إن استطعت ألا يسبقك أحد إلا مولاك فافعل » .

كانت آراء عبد الله بن خبيق اقتراباً من مفهوم التصوف كما قلنا . ولكن لم تكن أنطاكية وحدها تقترب من مفهوم التصوف ، كانت مراكز أخرى للزهد الضارب نحو التصوف فى ثغور الشام .

(١) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٢١٨ .

obeikandl.com

# الفصل الخامس

# الزهد الضارب للتصوف
# فى ثغور الشام

## ١ – سليمان الخواص : فكرة الظلمة :

كان الزهد فى ثغور الشام يقترب حثيثاً من التصوف ، وبدأت تظهر لمحات صوفية تكاد تكون مذهباً على أيدى زهاد متفرقين هنا وهناك فى الثغور والعواصم . حقًّا كانت التجربة الروحية لدى كل واحد من هؤلاء تعبر عن حياة الأنا الداخلية ، ولكن ثمة رباط كان يجمع بين هؤلاء جميعاً هو البحث فى إرادات القلوب ، فى علم إرادة النفس ، كما كان يجمعهم جميعاً ، التغنى « بالحب الإلهى » والفناء فى الذات الإلهية ، وقد رأينا من قبل ، كيف ابتعد بعض العباد عن ظواهر العبادات ، لكى ينظروا فى بواطن القلوب ، وينعكسون على الداخل فقط . بل كان البعض منهم ينظر إلى ما يفعله كبار الزهاد – نظرة السخرية لما يفعلون . وهذا سليمان الخواص – وكان ممن يحضر حلقة الأوزاعى أحياناً ينأى عن المجلس فى صمت ، حين يعلن سعيد بن عبد العزيز العابد الشامى فى المجلس أنه لم ير أزهد من سليمان . ويمر سليمان الخواص بإبراهيم بن أدهم وهو شيخ الزهاد فى هذا العصر – على الإطلاق – وهو عند قوم أضافوه وأكرموه . ويصيح سليمان الخواص معاتباً « نعم الشيء هذا يا إبراهيم ، إن لم تكن تكرمه على دين . . . ويمر الناس به ، فلا يسلم . ولا يأبه بإنسان[٢] .

ويدخل عليه سعيد بن عبد العزيز ، ويراه فى الظلمة ، وستكون الظلمة سنة للصوفية من بعده . . . ويقول له سعيد : أراك فى ظلمة . ويرد سليمان الخواص « ظلمة القبر أشد من هذا . ويعرض عليه سعيد صرة فيها بعض المال فيرفض أشد الرفض . فيطلب منه الدعاء . فيصرخ سليمان صرخة رهيبة « مالك – ياسعيد – فتنتنى بالدنيا ، وتفتنى بالدين ، مالى والدعاء . . . من أنا » وحين يضخم التصوف ، سنرى الصوفية يسخرون من الدعاء . إنه لن يغير الجبرية الإلهية المطلقة ، لادعاء ولا دعاؤون ، لقد نزل الحكم المطلق . . . قديماً ، ونحن أشباح ، وظلال ، على مسرح الوجود العظيم . . .

---

(١) السلمى : طبقات ص ١٤٤ ، ٤١٥ القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٩٩ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧٤ ألى ٢٧٧ .

ويسمع الأوزاعى – عالم الفقه – فيقول « دعوا سليمان ، لوكان سليمان من الصحابة ، كان مثلا » وقد تتلمذ مضاء بن عيسى الزاهد المشهور على سليمان وأخذ عنه . . . [١] .

**٢ – سلم بن ميمون الخواص : المعراج الروحى :**

وتظهر فكرة صوفية خطيرة على سلم بن ميمون الخواص من زهاد طبرية وهى معراج النفس إلى الرسول ، ثم إلى جبريل ثم إلى الله . . . حيث يقرأ القرآن على كل[٢] . وسيتضح فى صوفية القرن الثالث والرابع فكرة المعراج هذا ، ثم ستظهر لدى السالمية فكرة تجلى الله على لسان كل قارئ للقرآن .

**٣– أبو عبيدة الخواص : الحب الإلهى :**

ولكن مالبثت الفكرة الصوفية أن ظهرت فى صورة أوضح على يد خواص آخر ، هو أبو عبيدة الخواص – أو عبيدة الساحلى – عباد بن عباد ، وقيل أيضاً أن كنيته أبو عتبة . ويبدو أن موطنه كان مدينة صور ، ولكنه كان يتنقل على الساحل ؛ كذلك ظهر إلى البصرة وعاش فيها ، كما تتلمذ هو على الأوزاعى وأبى بكر بن مريم وقد روى أخباره أحمد بن أبى الحوارى وبشر بن الحارث الصوفى البغدادى المشهور[٣] .

ويبدو أن أبا عبيدة الخواص كون مدرسة ، وكان له أتباع .

وقد تركت لنا رسالة كتبها إلى إخوانه يعظهم ، وهو يطلب فيها أن « يعقلوا » والعقل نعمة ، ولكنه يخشى عليهم أن « يتعمقوا فيما هو عليهم ضرر » فيسهون عن الحق كأنهم لا يعلموه . . . والحق واضح » . ويخاف عليهم زلات العلماء ، حملوا العلم ، ففسدوا به ، كانت غايتهم أن يعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعة العمل ، والعمل أهم فى رأيه من العلم وهنا نطق هؤلاء العلماء بالهوى ، أخذوا يحللون ويحرمون « ليزينوا ما دخلوا فيه من الخطأ » . ويقرر أن ذنوب هؤلاء ذنوب لا يستغفر منها ، وتقصيرهم فاق كل تقصير . كيف يهتدى هؤلاء « وكيف يهتدى السائل ، إذا كان الدليل حائراً ، أحبوا الدنيا ، وكرهوا منزلة أهلها . فشاركوهم فى العيش ، وزايلوهم بالقول[٤] » .

ويبدو أن النزاع بين الزهاد والفقهاء كان قد بلغ أشده ، وأخذ أبو عبيدة الخواص ، كما أخذ غيره

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٨٦ ٪ ٢٧٧ ، وابن الجوزى : صفة ح ٤ ص ٢٤٧ ٪ ٢٤٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧٧ ٪ ٢٨١ ، وابن الجوزى صفة ٤ ص ٢٤٨ ٪ ٢٤٩ .

(٣) ابن الجوزى صفة ج ٤ ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٤٩ .

من الزهاد ، ينهون عن سؤال هؤلاء العلماء ، إنهم حيارى ، لا دليل لديهم على طريق إلى الله . أما الطريق إلى الله عنده . . . فهو طريق الزهاد ، وجوهره الحزن « الحزن جلاء القلوب ، به لبستم مواضع الفكر » . . . وكان يبكى ، إنه لم يضحك أربعين سنة ، بل قيل « إنه منذ سبعين سنة ، لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله » .

كان هذا هو الجانب الزهدى فى حياة أبى عبيدة الخواص ، فما هو الجانب الصوفى لديه :

كان بشر بن الحارث على جبال عرفة ، فرآه ، وقد بلغ به الوله ينشد :

سبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على شبا الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشرا من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه ... سبحانه من مليك نافذ القدر
سبحان من هو أنسى إذ خلوت به ... وفى جوف ليلى وفى الظلماء والسحر
أنت الحبيب وأنت الحب يا أملى ... من لى سواك ومن أرجوه يا ذخرى

ثم سمعه ينشد أيضاً :

كم قد زللت ، فلم أذكرك فى زللى ... وأنت ياسيدى فى الغيب تذكرنى
كم أكشف الستر جهلا عند معصيتى ... وأنت تلطف بى حقًّا وتسترنى
لأبكين بدمع العين من أسف ... لأبكين بكاء الواله الحزن

ثم غاص فى غمار النامس . . .

إن من الواضح إذن أن الأبيات فى الحب الإلهى ، وهى حديث هادئ بينه وبين محبوبه على جبال عرفات . . . يتضح فيها روح الجذبة الصوفية لدى المحبين من متأخرى الصوفية .

ولكن ما يلبث أبو عبيدة الساحلى ، أن يذهب للبصرة ، وهناك ، فى بلد الحب ، وفى صورة سيعلنها الحلاج من بعد ، يمشى فى طريق البصرة ، وعلى سرته خرقة ، وعلى رقبته خرقة . . . فكان إذن من أوائل من لبسوا الخرقة الصوفية ، ثم يصيح : واشوقاه – إلى من يرانى ولا أراه . . . ثم ما هو وقد كبر – يأخذ بلحيته ويمر فى الطرقات صائحاً « قد كبرت فاعتقنى[1] » وسنجد هذه الصورة أيضاً تتردد فى أعماق الحلاج فى أسواق بغداد .

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

٤ – أبو عبد الله الصورى : محمد بن المبارك : علم طريق الآخرة :

ويبدو الزهد الضارب إلى التصوف مرة أخرى فى زاهد من زهاد إحدى الثغور – وهى مدينة صور – فى شخص أبى عبدالله الصورى – محمد بن المبارك عن علم « طريق الآخرة » وهو عنده وعند أصحابه من بعده طريق محمد ، وهو ممدود لأهل الإيمان بالله من الدنيا إلى الآخرة . والإيمان نوعان : إيمان ظاهر وقع به الستر الظاهر ، وإيمان باطن – وقعت به الخشية الباطنة أما الإيمان الظاهر فهو « إقرار اللسان بالتوحيد ، وموافقة جوارح الأبدان فرائض التوحيد » . وهذا الإيمان لابد منه لحياة المرء فى مجتمعه وبه يحقن الإنسان دمه وماله وهذا ما يقصد بالستر الظاهر به . أما الإيمان الباطن الذى تقع به الخشية الباطنة ، فهو عند محمد بن المبارك وعند أصحابه هو « إيمان القلب » ويقسمه إلى ثلاثة : الأولى : التصديق لله فيما وقع به وعده ووعيده – الثانى : حسن الظن بالله تعالى من غير المعرفة . الثالث : إلقاء التهم عن الله من عقد الثقة به .

أما التصديق الأول ، وهو التصديق لله ، فإنما هو من عين المعرفة بالله . وشرطه صحة المعرفة ، فإن صحت ، سقط الارتياب عنه لسقوط الجهل به عن قلبه فلما سقط الجهل ، اعتقد القلب تصديقاً ، قد دلت المعرفة على تصديقه فإذا وصلت القلوب إلى هذه الدرجة ، وتمكن التصديق فى عقائدها ، انفتق من هذا « نور فيه دلالة النفس على مكونها ، فإذا صح العلم فيها بأنها مكونة لا من شىء كونت ، ولها وجود ما علمته من خلقها ، على الشىء المغيب عنها ، أنها أعجب مما قد شاهدته بنظر ، فههنا سكن القلب إلى تصديق الرب عز وجل فيما وقع الوعد به ، وينصرف الهم إلى تجريد العناية إلى ما وقع به أمر الله ونهيه .

والإيمان الثانى : وهو حسن الظن بالله من غير المعرفة . ويشرحه بأن علم المعرفة بالله أن الله عز وجل أحسن إلى الإنسان فى خلقه تفضلاً منه عليه ، لا باستحقاق عمل متقدم كان منه إليه . وابتداؤه تفضل الله عليه بنعمة الخلقة ، فيقيم النظر من العقل الباطن فى الأشياء ، فينظر إلى كل ما منعه الجهل من معرفته وإلى طلب الزيادة فى التصديق بالله وحسن ظنه بما جرى فيه تدبيره ، فيصل إلى العلم بأن وهن تصديقه وضعف حسن ظنه من جهله بربه . وهنا ننتقل إلى المقام الثالث :

والإيمان الثالث : هو مقام المعرفة ، وأن تلقى التهم عن الله ، وتعقد الثقة به . . . هنا « مقام تنتهك فيه ستور الجهل ، وتقع البصيرة من النظر ، والتأمل ، الذى يكشف عن أضرار الجهل » فإذا أثبت القلب هذا معرفة ، علم أن الله قد نقله من التراب إلى حسن خلقته ، وزين خلقته باستواء العافية فى خلقته ستراً يتقلب فيه ، وتطيب بهذا الستر معيشته » فإذا صح العلم بهذا ، كان الله غير جائر فى رحمته

حين نقله من التراب إلى حسن خلقته وسوّاه رجلاً ، وهو أيضاً غير جائر فى حكم يوقعه برحمته . . . هنا يعرف سر القضاء التنازل ، أحكام الله كلها رحمة . هنا يعبر محمد بن المبارك هو وأصحابه وحلقته عن تلقى الأحكام الإلهية ، الحكم النافذ من الله – وهى كلها رحمة من الله . . . وسنرى هذا المعنى يضخم ويكبر لدى الهروى الأنصارى الصوفى المشهور وغيره ، فيما بعد . ويرى محمد بن المبارك أن الخروج من اتهام الله إنما سببه « ضعف المعرفة وقلة تصديق القلب بالعزة ، واجتماع القلب من الجهل بالمعرفة على حب الدنيا دون الآخرة ، فمن لم يصدق الخبر تصديقاً يؤدى إلى ثقة ، بما وقع به الخبر ، كان الله عنده غير وفى ، فيما وعد » . فحسن الظن ، رأوا المرحلة الثانية من الإيمان مرحلة هامة ، هى أصل ، ولكن لابد لها من فروع وهى السكوت والثقة والطمأنينة والرضا . والسكوت إنما يحدث من يقين المعرفة لامن يقين الإيمان ، حقًّا لقد مسته شعبة من يقين الإيمان ، ولكن لابد له من أنوار المعرفة . ويشبه المعرفة بمثال الماء السائل فى حدوره ، إذا حملته السيول إلى مغيضه ، إنه يكون متحركاً جارياً فى مسيله ، وكذلك المعرفة فى سيلها إلى القلب ، تكون وهى متجهة إليه ، محاولة الحصول عليه ، متحركة غير ساكنة فإذا وافت مغيضها من القلب ، سكنت ، إنها تشبه تماماً سكون الماء فى مغيضه ، وهنا يصفو القلب ، يصفو نوره خالياً من كل شائبة . . . انظر قرار الماء تجده قد تخلى عن الطين ، لقد سقط الطين فى أرض المغيض ، فسد خروقه ، وصفا الماء . . . وسكن « وكذلك المعرفة إذا سكنت فى القلب ، وتمكنت بالتصديق والثقة منه تراخت منها علوم مؤكدة ، فسدت خروق القلب التى كانت الآفات الوسواس » فتخلصت المعرفة منها ، وكماكان الماء لا يصلح للبشر فى وقت انحداره وسيله إلى مغيضه – كذا المعرفة ، إذا لم تكن متيقنة صافية ، لم تصلح لشرب العقول منها .

لذلك كان علم العلماء ، لا يصلح لعطش العقلاء ، إنهم مزجوا علمهم بحب الدنيا . . . أما معرفة الزاهد ، فلا تؤخذ عن هؤلاء بالعلم والتلقين ، إنها هبة ، أو إنها هى التى تصفى نفسها بنفسها ، كالماء « هو استقل بنفسه عن الذى كان مازجه » فصفا وراق « وهكذا العالم الدليل ، إذا علم ودل ، لم يدله على مولاه غيره بل علمه ، فإذا ترك دلالة نفسه ، لم تصلح دلالته كغيره[1] » . وإذا صح أن هذا النص لمحمد بن المبارك ولأصحابه فيكون أول محاولة فى هذا القرن – أى القرن الثانى – لوضع مذهب فى التصوف ، وأول محاولة لتبيين أنواع الإيمان ، كما أنه صرح تمام التصريح بالمعرفة ، النور الملقى فى القلب كطريق للمنح الصوفية . ولذلك خشى دعوى الكثيرين المعرفة وانتحالهم لها . لذلك يقول « ما ترى إلا متغيراً بشهوة من نفسه ، ومأخوذاً ببواقى دنيا غيره ، كذب مؤمن ادعى المعرفة بالله ، ويداه ترعى فى قصاع المستكثرين ، ومن وضع يده فى قصعة غيره ، ذلت رقبته » بل إنه ينكر محبة الله

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٩ – ٣٠٣ .

على هؤلاء « وما أثبت لأحد ، ادعى معرفة الله ، وهو يلف الثريد بثلاثة أصبع » . ثم يكرر ثانية « ليس من المعرفة بالله ، أن تجعلها – يعنى النفس – مطية لهوى غيرك ، وطريقاً لطلب دنيا مخلوق غيرك » . ويقول : « ما آمن بالله من رجا مخلوقاً ، فيما ضمن الله له [1] » كان هذا كله لكى يبعد المريدين عن العلماء الذين رجوا الدنيا بالتقرب للخلفاء ، وتردد على قصور الأغنياء . ولذلك أخذ يعالج القلوب ، ويطلب أن تكون الأعمال صادرة عنها لا عن الجوارح « أعمال الصادقين لله بالقلوب ، وأعمال المرائين بالجوارح للناس ، فمن صدق فليقف موقف العمل لله ، ولعلم الله به ، لا لعلم الناس لمكان عمله » .

وينتهى طريق الزهد عنده أو هذا الزهد المتصوف إلى الحب الإلهى : « إن فى قلبك وجعاً لا يبريه إلا حبه ، ولا يستنطقه إلا الأنس به ، وجوعاً لا يشبعك إلا طعمت من ذكره ، وعطشاً لا يرويه إلا ما وردت عليه لذته للذاذة مناجاته [2] » . . . إذن فالآلام والأوجاع ، والجوع والعطش . . . ليست هى أشياء مادية ، إنما هى معانى فقط للحب الإلهى . . . والأنس بالمحبوب ومناجاته .

ولذلك يقص علينا محمد بن المبارك قصة مقابلته فى جبال بيت المقدس لامرأة عليها مدرعة من صوف ، وخمار من صوف – ولعل القصة مفتعلة كعادة الكثير من الزهاد والصوفية فيما بعد ليقصوا خلالها أحوالهم ومواجيدهم . . . على أية حال ، إنه يذكر أنها سألته : من أين أنت ، فأجاب بأنه رجل غريب : وتعجبت المرأة وقالت : « سبحان الله – فهل تجد مع سيدك وحشة الغربة ، وهو مؤنس الغرباء ، ومحدث الفقراء » فبكى محمد بن المبارك : فقالت « أو لا يبكى العليل ، إذا وجد طعم العافية » فلما سألها عن السبب أجابت ، لأنه ما خدم القلب خادم هو أحب إليه من البكاء ، ولا خدم البكاء خادم هو أحب إليه من الزفير والشهيق فى البكاء . . . فلما طلب منها أن تعلمه الحكمة وأن تمضى فى حديثها : قالت : سبحان الله – أو ما كان فى موقفنا هذا ما أغناك من الفوائد عن طلب الزوائد : قال : لاغنى بى عن طلب الزوائد : وهنا قالت : حب ربك ، شوقاً إلى لقائه ، فإن له يوماً يتجلى فيه لأوليائه [3] » . إذن هى غاية الصوفى ، سواء ذكرتها له هذه الصوفية الهائمة فى جبال ، أو وضعها هو على لسانها « الحب الإلهى والشوق العارم لرؤيته ، متجلياً فى بهائه لأوليائه . . . ومن العجب أيضاً أن يذكر محمد بن المبارك هذين المصطلحين الصوفيين : الفوائد والزوائد .

ولكن من هو الولى : هل يسير محمد بن المبارك خطوة جريئة سنراها فى القرنين الثالث والرابع ،

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر : ج٩ ص ٢٩٨ ، والشعرانى : طبقات ج ١ ص ٥٥ .

(٣) أبو النعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٩ .

فيخلع صفات الربوبية على الولى الكامل . إننا نظفر منه بهذا النص : « من ادعى أنه من أهل الطريق ، ضعف عن فعل آدابها ، ولم يمت حتى يفتضح ، ومن محى اسمه من أهلها ، لم يمت حتى تشد إليه الرحال » . عجباً . . . هل يتكلم هنا عن الغوث ، من محى اسمه من بين الرجال – رجال الله . . . فلجأ إليه الرجال ، ولجأ إليه الجمهور هل هو السر الإلهى ، وتظهر عليه أوصاف الربوبية إنه يصرح بهذا . . . « كم من يضمر دعوى العبودية ، ولا تظهر عليه إلا أوصاف الربوبية [1] » . . . وهذا هو الولى الكامل . وحقًا . . . كان أبو عبد الله الصورى – محمد بن المبارك – سلفاً كبيراً لصوفية القرنين الثالث والرابع ، بل مبشراً بمذاهبهم .

**٥– أبو عبدالله الساجى : سعيد بن زيد : بدايات الطريق الصوفى الحقيقى :**

وما لبث أن نجد بواكير التصوف فى إحدى الثغور – ثغر طرطوس – فى شخص أبى عبد الله النباحى – أو الساجى – سعيد بن زيد – وسنجد فى هذا الزاهد ظاهرة جديدة ، وهى استخدام الآيات القرآنية – كمواقف الصوفية . وسيكون بهذا أيضاً سلفاً للحسين بن منصور الحلاج ، كما سنجد له أول محاولة لتفسير القرآن أو تفسير بعض الآيات تفسيراً صوفياً . ولقد تتلمذ هذا الزاهد الكبير على يد سفيان الثورى والفضيل بن عياض وتتلمذ عليه عدد كبير من الزهاد الشوام كأحمد بن أبى الحوارى وعبد الله بن خبيق ، ومن صوفية بغداد كأبى عبد الله – عمرو بن عثمان المكى (المتوفى عام ٢٩١) وأبى سعيد أحمد بن عيسى الخراز (المتوفى عام ٢٧٧ هـ) [2]

أما مذهبه : فقد بدأزاهداً بحتاً يسير فى نسق أستاذه الثورى ، فينطق بكلمات هى أقرب إلى مذهب الثورى . فيقرر أن هناك خمس خصال ينبغى للمؤمن أن يعرفها : الأولى : معرفة الله . والثانية : معرفة الحق . والثالثة : إخلاص العمل لله . والرابعة : العمل بالسنة . والخامسة : أكل الحلال .

ويشرح هذه الخصال ، فيذكر أن من عرف الله ، ولم يعرف الحق ، فلا ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف ولم يخلص العمل لله ، لم ينتفع بمعرفة الله ، وإن عرف ولم يكن على السنة ، لم تنفعه المعرفة ، وإن عرف ، ولم يكن مأكله من حلال لم ينتفع بالخصال الخمسة أما إذا كان مأكله من حلال ، صفا له القلب ، فأبصر به أمور الدنيا والآخرة ، وأما إذا كان المأكل من شبهة ، فإن الأمور تشتبه عليه بقدر مأكله . أما إذا كان مأكله من حرام ، فإن أمور الدنيا والآخرة تظلم عليه ، وإن كان مبصراً . إنه أعمى حتى يتوب .

---

(١) الشعرانى : طبقات ج ١ ص ٥٥ .

(٢) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٩ .

هنا . . . أبو عبد الله الساجي زاهد من زهاد المسلمين التقليديين ، ولكن ما يلبث أن يتجاوز هذا الزهد الخالص ، فيرى أن القلب هو كل شيء ، وأن الأمر ليس أمر جوارح – والصلاة والصيام خلقت لها ، إنها أمر قلوب ، ويضع هذا النص الخطير « القصد إلى الله بالقلوب ، أبلغ من حركات الأعمال كالصلاة والصيام ونحوها » .

أما بعد : أليس هذا بدء رفع التكاليف ، أو اعتبار حركات الصلاة والصيام . . . في المحل الثاني ، إذا كان يسكن على عرشه الحقيقي ، وهو قلب الإنسان . إنه يذكر « من وثق بالله فقد أحرز قوته ، ومن حيي قلبه ، فلقد لقي الله ولا يشك في نظره [1] » .

وإذا وثق الإنسان بالله ، واستوى عنده منعه وعطاؤه . وهو يستشهد هنا بشيخه الفضيل بن عياض ، تمنى لقاءه – تمنى انتهاء الحياة الأرضية . فيقول لأحمد بن أبي الحواري « تدري أي شيء : قلت البارحة والبارح الأول ؟ قلت : قبيح بعبد ذليل مثلي يعلم عظيماً مثلك ، لا يعلم ، إنك لتعلم أني لو خيرتني بين أن يكون لي الدنيا – منذ يوم خلقت ، أتنعم فيها حلالاً لاأسأل عنها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة ، لاخترت أن تخرج نفسي الساعة . . . أما تحب أن نلقى من يطيع . . . » إنه يسمع نداء الله لموسى ، يا موسى إذا انقطعت إلى فقد وصلت » وقد انقطع له ، ولكنه يخشى . . . الخاتمة . فيصيح « واخطره[2] » .

وهنا وضع أبو عبدالله الساجي . . . كل شيء بين يدي الله ، محترقاً بالحب الإلهي ، لايكره الموت . . . بل يحبه . . . بل يستخدم هنا كلمة الأبدال . . . ويحدد الأبدال إنهم أحبوا الله ما يشاء الله ، فإنه من أحب الله ، لم ينزل به شيء من مقادير الله وأحكامه إلا أحبه . والموت هو السبيل إلى الحبيب إلا كان آبقاً . . . ومن خطرت الدنيا بباله حجب عن الله [3] .

إذا لم تكن الأعمال – الأعمال الظاهرة من الشريعة هي أساس زهد أبي عبدالله الساجي . إن مقامات التصوف وأحواله أهم بكثير في الوصول إلى الله من هذه الحركات الظاهرة – فالرضا أهم من كل هذه الحركات والأعمال وكذلك المعرفة بل المعرفة هي النعيم ، وهي في هذه الدنيا ، ثم تمتد بعد الموت يقول « أطيلوا بالنظر في الرضا عن الله ، وتساءلوا عنه بينكم ، فإنكم إن ظفرتم به بشيء علوتم به الأعمال كلها » . أما المعرفة فإنه يستخرجها بتأويل من القرآن ، فيفسر الآية القرآنية « وتعيها أذن واعية » أي أذن عقلت عن الله . ويفسر « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » بأنها المعرفة بالله ، وفي هذه

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج — ص x= ، xx= .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣١١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، .

المعرفة النعيم . ويفسر « يسقون من رحيق » بأن الله قد عجل لهم فى الحياة الدنيا ، الحلاوة فى عبادة الله ، ويتصل ذلك إلى يوم القيامة ، ثم ينتهى بهم الأمر إلى الجنة ، لأن أول العطية كان ابتداؤها فى دنيانا هذه .

وليست الجنة – بالمعنى الدينى هى الغاية ، ولكن حب الله هو جنة الزاهد ، ويستشهد بقول موسى : « وعجلت إليك ربى لترضى » ، وهى صيحة سيطلقها الحلاج ، والسياف يتقدم إليه ليقتله – بعد أن قطعت يداه ورجلاه . ولقد سبقه أبو عبد الله الساجى فى إطلاقها وعندها « ينتظم الثواب والعقاب » . ولا يأبه الزاهد إذن بجنة ولا نار ، ولا وعد ولا وعيد . ولا يستشعر الصوفى بالخوف إن الخوف متصل بالأعمال « إن من عبد الله على حبه أشرف عند الله من عمل على خوفه » وقد ذكر الله درجة الخائفين ، وأمسك عن درجة المحبين ، لأن القلوب لا تحتمل ذلك ، كما أمسك عن درجة النبيين ، وأظهر ثواب المتقين .

ثم يعود إلى القرآن . . ويحاول تفسيره ، فذكر الله – عبدنا وعبادنا – هذا وهذا وذاك ، وأثنى عليهم « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه » « أخلصناهم بخالصة ، ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » وقال : « هذا ذكر ، وإن للمتقين حسن مآب ، جنات عدن » . فهنا يقرر الله أن ذكره وثناءه عليهم أى على الأنبياء أثوب من صواب المتقين . إنه ذكر صغار الأمور الجنة ، ولكن لم يذكر ثوابه العظيم ، إنه أخفاه ولم يبينه حيث لا تحتمله القلوب . فقال : « ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» ولم يبين ما هى قرة العيون هذه . ثم قال « ولدينا مزيد » . . . وهى للمحبين ، وستكون المزيد فيما بعد – عند مفسرى الصوفية ، تجلى الله لهم ورؤيته – وذلك حين يفسرون مزيداً – أو الآية الأخرى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

ولذلك يقول أبو عبد الله الساجى : إنه لو كانت له دعوة مستجابة ما سأل الفردوس ، ولكن يسأل الرضا – إن الرضا هو « تعجيل الفردوس الأرضى » وهو هناك أيضاً أعده لهم فى الآخرة . إنه ملك أفاضه على من اصطفى وهؤلاء هم المصطفون . لم تكن هناك أعمال تقدمت شكرهم عليها ، ولا شغفاً لهم عنده ، ولكنه كان ابتداء منه ، وقد انتهى الأمر . . . ونزل القضاء « قد فرغ الله مما أرادوا . . . أسعد بالعلم من قد عرف[1] » .

وبعد . . . فقد كان أيضاً أبو عبد الله الساجى من متقدمى رجال التصوف ، لقد فتح الطريق لمن بعده ، وكان أثره كبيراً فيمن تلاه من رجال التصوف الخالص .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٣١٤ ، ٣١٧ .